آن لوريل كارتر

حفيدة الراعي

مكتبة 232

ترجمة
جلال حسين الخليل

آن لوريل كارتر

حفيدة الراعي

ترجمة
جلال حسين الخليل

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

حفيدة الراعي

تأليف: آن لوريل كارتر

ترجمة: جلال حسين الخليل

مراجعة لغوية: د. محمد سعيد محمد عطية

صورة الغلاف: Steve Raymer/National Geographic Stock

الترقيم الدولي(ISBN):1-776-85-9948-978

كلمات

القصباء - مبنى D

هاتف: 5566696 6 971+

فاكس: 5566691 6 971+

ص. ب. 21969 الشارقة

الإمارات العربية المتحدة

info@kalimat.ae

www.kalimat.ae

جميع الحقوق محفوظة © كلمات 2012

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

The Shepherd's Granddaughter

Published in Canada and the USA in 2008

by Groundwood Books

110 Spadina Avenue, Suite 801, Torento, Ontario M5V 2K4

or c/o Publishers Group West

1700 Fourth Street, Berkeley, CA 94710

Text copyright © 2008 by Anne Laurel Carter

شكر وتقدير

هذه الرواية هي تصوير روائي لواقع معقد. وأريد أن أتوجه بالشكر عليه إلى كثيرين. جيهان الحلو التي دعتني لزيارة رام الله. الناس الطيبون في معهد تامر، الذين يحبون الأطفال، وساعدوني بما لديهم من قصص. علياء، واحدة من الكرماء الذين استضافوني، وقد استلهمتُ روحها في رسم جانب من شخصية أماني. ريما، العاشقة لقريتها والمُغرمة بقطاف الزيتون. عطا، الفلاح الفخور الذي تعرضت داره للهدم مرتين ويريد إعالة أسرته من عمله في أرضه. داليا، المشتاقة لأشجار الزيتون. يُسْرَى من قرية عبود، ذات التاريخ العريق في التسامح، والتي تشعر بالرعب من اكتمال جدار الفصل. سامح، الذكي في "الالتزام بتفاصيل القصة". فرق صناع السلام المسيحية. أصدقاء المراسلة في تورنتو والقدس ورام الله.

أود أيضًا أن أشكر المجلس الكندي للفنون ومجلس أونتاريو للفنون. كما أتقدم بالشكر إلى فريق من نظرائي الذين يسَّروا لي الوسائل ومنحوني الثقة لأزور الضفة الغربية عدة مرات، ولأكرس نفسي لهذه القصة لأكثر من ثلاث سنوات.

وأتقدم بالشكر أيضًا إلى زوجي وأبنائي على صبرهم عليّ ومساندتهم لي، وأخص بالذكر أكبرهم، ديفيد، الذي درس الشرق الأوسط وتسوية الصراعات في جامعة ماكغيل، وكان يتناقش معي فيما أكتبه.

كما تشرفت بالعمل مع الناشر باتسي ألدانا، والمحررة شيلي تاناكا. وأشكرهما على رؤيتهما الفطنة والقوية لهذه الرواية.

أشكر هؤلاء جميعًا على مرافقتي في رحلتي البحثية الأخيرة. وكم كان رائعًا أن نصنع صداقات جديدة معًا!

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

وراء أفكار الصواب والخطأ يمتد سهل فسيح.
سألقاك هناك.

جلال الدين الرومي

[1]

كادَ أولُ أيام أماني في رعي الغنم على قمة جبل جدّها أن يكون آخر يوم في حياتها.

كم نبّهتها أمها إلى خطورة هذا العمل، لا سيّما على بنت ما تزال في السادسة. غير أن جَدَّ أماني "سيدو" كان راعيـًا، وأماني كانت عازمة على أن تصبح هي أيضًا راعية غنم مثله. وهكذا، اصطحبها سيدو معه إلى أعلى الجبل.

لأكثر من ألف سنةٍ لم تَخْلُ عائلة أماني من راعٍ فيها، ولد يسرح بالغنم على الجبال الخفيضة، فيما يزرع الآخرون الوادي الضيق أسفل الجبال، على امتداد سفوح تلك المنحدرات، حيث تنمو أشجار الزيتون القوية على المُدرَّجات الحجرية. أمّا الخضار وكروم العنب فإنهم يروونها بالأنابيب من عين ماءٍ تنبع في أرض مرتفعة لتقاوم الجفاف في قاع الوادي.

بعد الإفطار، ساقَ سيدو قطيعه عبر أشجار الزيتون في كرمه، صعودًا نحو قمة تلّة صغيرة. وهناك ـ في البستان ـ فتح صنبورًا يصل بين أنبوبين لمياه الري، ومنه ملأ حوض السقاية الطويل لأغنامه، ووعاء الشرب لكلب الرعي، وكأسًا لأماني، وآخر له. وقبل أن يشربا، غسل

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

يده اليمنى ثم اليسرى وسمّى بالله، «بسم الله الرحمن الرحيم.»
الآن أصبحا جاهزَين لصعود الجانب الأعلى والأكثر انحدارًا من السفح نحو قمة الجبل.
لاهثةً وهي تتبع خطوات جدّها، وصلت أماني أعلى الدرب المتعرج، ثم التفتت وراءها وشهقت؛ فقد كان حوض السقاية في مكانه السحيق تحتها صغيرًا، وكأنه بحجم الهاتف الخليوي الجديد لأبيها. ومن على قمة جبل سيدو ظهرت الدوالي الخضراء في كروم العنب تتماوج كالماء، متمايلة بعضها على بعض.
من ذلك المكان ـ على الجانب الآخر للوادي ـ بدت تلك العلبة البيضاء الصغيرة التي تشرف من علٍ على كروم العنب على السفح المقابل.
أكانت تلك هي دارها؟ وماذا عن ذلك المخلوق الذي يدخل ويخرج منها؟ كان يُلَوِّحُ بشيء في يده.
تلك هي أمها، تنفض حصيرًا.
أحست أماني برأسها يدور، حين رأت أمها ـ من على قمة العالم ـ تلوح لها مثل النملة.
أشاحت أماني بوجهها ليتوقف الدُّوار، وخطت أول خطوة لها فوق قمة جبل سيدو تحت السماء الفسيحة، حيث تنمو نباتات القطف (1) والسَلْبين (2) حول الصخور. ومرت بها مئة غنمة وهي تتسابق لتأكل.
قال سيدو: «واجب الراعي أن يحرس قطيعه.»

---

(1) القَطَف ويسمى أيضًا الرغل أو القَطَفَة أو القَطَاف أو السَرْمَق أو السَرْمَج أو السَرْمَة، نبات من الفصيلة القطيفية تضم أكثر من مئة نوع وتتميز بتحملها الشديد للوحة التربة.

(2) السلبين ويسمى أيضًا العَكّوب، نبات بري شائك من الفصيلة النجمية يكثر في المناطق الداخلية من بلاد الشام ويؤكل نيئًا أو مطبوخًا بعد إزالة الأشواك منه.

اتكأ سيدو على عصاه وهو يتطلع إليها، وطغى صوته الأَجَش على همهمة الحيوانات الجائعة. كانت قرابة سبعين عامًا أمضاها تحت شمس المتوسط قد أرهقت جِلده، حتى بدا لأماني وهو يقف هناك مثل شجرة زيتون.

أومأت أماني برأسها موافقة.

وتابع: «إنها مخلوقات مسكينة، يجب ألا تغيب عينا الراعي عنها. وتلك الزاوية الجنوبية الشرقية هي الجهة التي تقع فيها المشكلات عادة.»

في تلك الزاوية هناك جُرف خطير، وأي خطوة غافلة قد تودي بغنمة ـ أو ببنت ـ إلى حتفها على الصخور في الأسفل. وعلى الجانب الآخر من الزاوية يهبط درب العودة نحو الدار.

قال سيدو: «عملك هو أن تساعديني في مراقبة ذلك الدرب حين نصل إلى القمة. هل تستطيعين فعل ذلك؟»

قالت أماني: «نعم.» لِمَ هذا العمل السهل؟ إنه عمل يناسب رضيعًا. لكنها عادت وتذكرت ذلك الشيء الذي كانت عمتها وأبناء عمها الستة يخشونه أكثر من أي شيء آخر في الجبال.

«ما الذي سأراقب الدرب من أجله؟ ذئب؟»

ضحك سيدو لتغطي مِروحةٌ من التجاعيد عينيه، «لم يتبق ذئاب في هذه التلال؛ فقد قتلها أبناء القرى اتقاءً لشرها من قبل ولادة أبيك. ومنذ 1967، أتى دور الاحتلال ليطردها من هذه الأرض.»

وحدق بها بطريقة مستغربة، «معظمها، بطبيعة الحال.»

لم تقل أماني شيئًا. أكان هناك ذئب أم لا؟

قال سيدو: «لكن هذه حكاية أخرى. ومن الأفضل للحكايات أن

تروى آخر النهار. أريدك أن تراقبي أي غنمة مشاكسة. خصوصًا الكبش الكبير، العنيد؛ سوف يتمرد بعد الظهر وسيحاول التوجه إلى الكَرْم. ولا ينبغي للأغنام أن تنزل الدرب حتى يقرر الراعي أن الوقت قد حان للعودة.»

صوت الأذان الآتي من مسجد القرية البعيد جعل سيدو يشير بيده إلى الوادي، «ألا ترين كيف تبدو حقولنا مثل سجادة صلاة؟ حان وقت الصلاة.»

ثم جثا على الأرض ووجهه نحو الجنوب الشرقي، «استعدي بقلبك للصلاة. امسحي الغضب من قلبك مثلما تمسح جدّتك الأقذار من المطبخ.»

لكن ما الذي كان هناك ليثير الغضب؟ لم يكن حولهما سوى ثغاء (3) الأغنام ورؤوسها التي تتمايل وهي تقضم الحشائش، وشذى نبات الزوفا (4) يعطر الأجواء، بينما كانت أماني تصلي.

طوال الصباح سرحا بغنمهما وهي ترعى على مهل، أسفل الجانب الشمالي من جبل سيدو الذي ينحدر بلطف نحو الوادي المجاور. وشاهدت أماني أطراف الخيام الملفوفة في مضارب بدو بعيدة، والألوان المشرقة للغسيل المنشور على الحبال ليجف، والعنزات البيضاء التي تسرح تحت أشجار صغيرة.

وحين عادا إلى قمة سيدو تذكرت أماني عملها، وبقيت طوال العصر تراقب الدرب. لكن لم يصدر عن الأغنام أي مشكلة، بفضل ساحم

---

(3) الثغاء، هو صوت الأغنام.

(4) نبات بري عطري يكثر في إقليم البحر المتوسط.

الذي كان يبقيها حيث يريد سيدو لها أن تكون، وهو ينبح عليها وكأنه قائد عسكري.

لم تقع أي مشكلة إلى أن قال سيدو إن الوقت قد حان للعودة إلى الدار. كانت أماني تجلس على صخرة بجانب جدّها، تنصت إلى الغنمات المرضعات وهي تستدعي حملانها. حينئذٍ وقف سيدو يتفقد القطيع بعينيه.

«الثنية الحبلى ليست موجودة.»

قفزت أماني واقفة، «ما الذي سنفعله؟ ألن نعود إلى الدار؟»

«حين تضيع غنمة لا يغادر الراعي حتى يعثر عليها. هل اقتربت إحداها من الدرب؟»

هزت أماني رأسها، «لا يا سيدو. كنت أراقب.»

واصل سيدو تفقد المكان بعينيه، «إذًا، هي في مكان ما هنا. لقد اهتدت إلى مكان هادئ لتلد.»

صعدت أماني الصخرة، وظللت عينيها بكفها من الشمس الحادة. أصبح الصوف على ظهور مئة رأس حولها مثل بحر أبيض.

ماذا لو أن النعجة وقعت من الجرف؟ شعرت أماني بوخزة الذنب. لقد راقبت أعلى الدرب، ولكنها مرة ـ أو بضع مرات ـ انشغلت بمشاهدة ساحم، إنه كلب القطيع الذي يجعلها تضحك، كان أشبه بسور بنّي صغير على سيقان.

أصغت أماني للثغاء. من وراء تلك الظهور البيضاء، قرب الزاوية الجنوبية الشرقية، سمعت صوتًا غريبًا يشبه أنينًا مكروبًا.

«هناك، سيدو!» صاحت أماني وهي تشير بيدها.

ركض سيدو أسرع من أماني، وكوفيته تخفق في الهواء وراء رأسه. مقابل الجرف وجدا النعجة مستلقية على جانبها. لقد نبشت بحافريها الأماميين بقعة صغيرة لتلد فيها.

حين اقتربا منها أخذت تجهد نفسها للوقوف على أرجلها وتُقَوِّسُ ظهرها. وتدلَّى منها كيس أحمر مليء بالسائل. ثم استلقت ثانيةً فانفجر الكيس لينقع الأرض بالسائل.

جلس سيدو بجانبها وأخذ يهدهدها، «لا تخافي. أنت نعجة شجاعة. مولودك مقبل ونحن جئنا لنساعدك.»

جثت أماني على الجانب الآخر، مدهوشة. لقد قال جدّها، « نحن.»

كان رأس النعجة ممطوطًا للأمام وعيناها جاحظتان فيما تدفع الوليد. وظهر أنف مكسو بالزغب المبتل من الجيب الوردي المنتفخ تحت لِيَّتها. سبق وأن شاهدت أماني مواليد تخرج من أمهاتها في حظيرة الغنم، أمّـا هنا في العراء فقد كان الأمر مثيرًا للدهشة.

قال سيدو: «ليس الرأس، لا سمح الله. نريد طرفي قدمي المولود أولاً.»

ثم وضع يده الكبيرة على الأنف المبتل ودفعه ليعيده للداخل، وغاصت يده داخل النعجة وهو يقول: «أنت أم جيدة. أنا أدفع بلطف وحذر حتى لا أسبب أي أذى.»

حَفظت أماني كل شيء قاله أو فعله، «أنا أبحث عن ساقي الوليد الأماميتين. وجدت إحداهما. وأبحث عن الأخرى. ها هما الاثنتان، انظري!»

بين أصابع سيدو المجعدة رأت الطرفين الأبيضين لحافرين دقيقين.

أرادت أماني أن تقدم العون، وحدث ما كانت تتمناه؛ إذْ قال سيدو:

«أمسكي واحدًا واسحبي بخفة حين أقول لك.»

دفعت الأم. وشدت أماني بلطف. ظهر حافر أسود لماع موصول بساق نحيلة، والأنف المكسو بالزغب مرة أخرى، ولسان أزرق يتدلى جانبًا، ثم أذنان مبسوطتان على الرأس.

أرخت أماني يدها، مفسحة المجال له، «المولود يخرج! إنه يخرج!»

وظهر عنق طويل وكتفان. وبدفعة أخرى انزلق الحمل بأكمله خارجًا، ورافقه بحر صغير من السائل. الحبل السري الرفيع كان قد انقطع. أما النهاية الأخرى من جسم الحمل فكانت ما تزال داخل الكيس الأصفر.

لم يتحرك المولود. انتظرت أماني وهي تعلم أن النعجة ينبغي أن تبدأ بلعق الحمل لتدب فيه الحركة، غير أن النعجة تنحَّت عن تلك الكتلة المبللة وجاهدت لتقف.

صاحت أماني: «ما هي المشكلة؟ لمَ لا تساعد صغيرها؟»

قال سيدو وهو ينظف فم وأنف الحمل من المخاط بأصابعه الطويلة: «إنها أول مرة تلد فيها. إن لم تلعق الأم فعلى الراعي ألا يترك الوليد ليختنق.»

سعل الحمل ليشهق أول نفس له، ثم نفض سيقانه وخلصها من الكيس. وبعد أن تخلصت الأم الجديدة من حِملِها قفزت جانبًا ومضت مبتعدة.

صاح سيدو وهو يقفز واقفًا: «آه، لا، توقفي.»

بقيت أماني بجانب الحمل المبتل وهو يجاهد ليقف، وتباعدت ساقاه. رفعته بلطف من وسطه، وسحبته ودفعته حتى وقف

مرتعشًا وغير ثابت.

على بعد خطوات فقط كانت حافة الجرف الحاد والخطر. انتبهت أماني له وكانت سعيدة أن الحمل كان ضعيفًا ومترنحًا.

قالت: «أهلاً»، واحتضنته من حول كتفيه.

وحين تراجعت عنه حدث ما كانت تخشاه؛ لقد خطا الحمل خطوة وتبعها بأخرى نحو الجرف. تحركت أماني مسرعة، ووقفت لتحول بينه وبين الموت، مسندةً كاحليها على الحافة المتكسرة للهاوية التي خلفها.

«هيه! ليس لهذا الاتجاه! ارجع إلى أمك!»

نادى سيدو وهو يجر النعجة نحوهما: «توقفي أيتها الراعية الصغيرة.» كان يتطلع إلى أماني بغرابة.

«تقدمي خطوة نحوي يا أماني. خطوة أخرى، هكذا، هاتيها هنا. يجب أن تعثر على الحليب. كما أن الأم ينبغي أن تعوِّد وليدها على صوتها.»

أطاعت أماني تعليمات جدّها. استراحت ملامح وجهه ونبرة صوته حين وقفت آخر الأمر بجانبه. وساعد الحمل الصغير على أن ينقر برأسه بقوة على ضرع النعجة الوردي الممتلئ بالحليب. وأزاح سيدو الصمغ الذي يسد إحدى الحلمات ليلتقمها المولود ويبدأ الرضاعة بنهم.

أسرع سيدو برفع رأسه ليتفقد القطيع. وفعلت أماني مثله أيضًا.

كان العنيد يمضي نحو الدرب.

وزمجر سيدو: «ذلك الكبش سيصير إلى موقد الشواء إن لم يتأدب. يظن أنه يستطيع التسلل للكرم إذا كنت مشغولاً.»

صاحت أماني: «سأوقفه!»

قال سيدو بحزم: «لا، ليس اليوم. اتركيه لساحم. ينبغي أن تكوني أكبر حجمًا وبيدك عصا راعٍ قبل أن تتمكني من أن تُملي على كبش ما عليه أن يفعل.»

النعجة التي جَفلت من حديثهما حاولت أن تهرب ثانية. لكن سيدو أمسكها بثبات ليتمكن الحمل من متابعة الرضاعة، وأدار ظهره لأماني وساحم والكبش.

هرول العنيد نحو الدرب والماء الذي كان يريده. أين هو ساحم؟ كان كلب الرعي يطارد نعجة أخرى ويركض مبتعدًا عنهما.

تعين على أماني أن تتصرف فورًا، فأمسكت بعصا سيدو الخشبية الملقاة على الأرض.

ما إن اقترب الكبش من أول الدرب حتى أبطأ ركضه. حجمه أكبر من أماني بثلاث مرات. وكانت عيناه - مثل شقين أسودين - مملوءتين غِلظة تحت خنجري قرنيه المعقوفين.

صاحت به أماني: «هيه!» وهي تهرع إليه وتجر وراءها عصا سيدو التي كانت أثقل من أن تحملها، «ارجع! ليس من هذا الطريق!»

خطا الكبش خطوة وانبرى جانبًا، ثم أخفض رأسه الضخم وأطاح بأماني في الهواء.

[2]

ارتمت أماني مثل كيس زيتون، وهَوَت على الأرض بجانب الجرف. كان صدرها يؤلمها، وذراعها يحرقها في المكان الذي خدش فيه قرن العنيد جلدها.

نظرت أماني إلى أصابعها وصدمت لرؤيتها حمراء. مسحت أصابعها بقميصها وهو ما ندمت عليه.

إن رأت أمها الدم فإن البنت ـ التي ما تزال في السادسة ـ لن تغادر البيت غدًا.

بغضبٍ، تقدمت أماني وهجمت على الكبش ثانية.

فقبضت عليها من قدميها يدان تعرفهما جيدًا، ثبتها سيدو على الأرض، على مسافة لا بأس بها من حافة الجرف، ويداه تمسكان بكتفيها.

«خذي نفسًـا يا أماني. اسمعيني. اهدئي.»

وتفحص وجهها وذراعها منتظرًا أن توليه انتباهها.

«لقد ذَكرتِني بنفسي حين كنت صبيًـا. ستكونين راعية ذات يوم، لكنك بحاجة لتعلم الكثير. أراغبةٌ أنت في التعلم؟»

حاولت أماني أن تومئ برأسها، غير أن ذهنها كان ما يزال يواصل هجومه على العنيد.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«لا تركضي نحوه، بل اجعلي الحيوان ـ وخصوصًا الكبش منها ـ يعرف الاتجاه الذي تريدين له أن يذهب فيه. وجِّهيه بذراعيك وصوتك وخصوصًا يا أماني بروحك. اجعلي روحك هي من تتحدث معه.»

وكفت أماني عن الارتعاش.

«ها هي. خذي هذه العصا الصغيرة بيمينك وأنا سأستخدم عصاي الكبيرة. أعطه كرامته. امنحيه الشعور بأنه هو الذي يختار طريقه. تخيلي بوابة بيدك اليسرى، وأظهري له الطريق الآمن الذي تريدينه أن يمضي فيه.»

تحركا معًا مثل يدي أمها حين تعزف على البيانو. حمحم العنيد وهز رأسه غضبًا، لكنه لم يرجع. وقف سيدو وراء أماني ممسكًا بإحدى يديه برسغها بقوة، ليذكرها بأن تفتح بوابة يديها من جهة أعلى التلة، أما العصا في يدها الأخرى ـ من جهة أسفل التلة ـ فبقيت بجانب عصا سيدو تسد الدرب المنحدر نحو الماء والدار.

ليس من هذا الاتجاه، هكذا كانت أوامر العصي.

من هذا الاتجاه، شجعته بوابتاهما وصوتا روحيهما. للأعلى.

فقفز العنيد عبر البوابتين والتحق بالقطيع.

قال سيدو: «الآن، حان الوقت لنعود إلى الدار.»

ورفع الحمل الجديد وحَملهُ عبر الدرب الوعر، فيما أتى ساحم ببقية القطيع وراء أماني.

عند حوض شرب الغنم وضع سيدو الحمل على الأرض وأشار بعصاه نحو الشرق.

«وعدتك بحكاية. أتريدين معرفة ما يوجد في ذلك الاتجاه؟»

حدقت أماني شرقًـا. جبل جدّها له قمتان: واحدة كبيرة ومنبسطة وهي التي كانا يسرحان بغنمهما عليها للتو، والأخرى قمة صخرية شديدة الانحدار، يفصلها عن الأولى وادٍ ضيق وترتفع مثل برج فوق الكرم.

«سنام الجمل؟»

قال سيدو: «أعني ما وراءه.»

لا أحد استكشف ما الذي يوجد وراء سنام الجمل. حتى أخوها عمر ذو السنوات العشر لم يسبق له أن ذهب إلى هناك.

يمتد حائط من الصخور على طول قاعدة سنام الجمل. وفوقه يتشكل المنحدر من كومة من الجلاميد الضخمة. كان مكانًا مثاليًا للإصابة بالتواء في الكاحل أو مواجهة أفعى.

فتح سيدو الصنبور. توضأ وغسل يده اليمنى ثم اليسرى وحمد الله.

«قبل أن يبني أجدادنا ذلك الحائط كان أي راعٍ يذهب إلى هناك لا يعود قطُّ.»

كانت الأغنام تتدافع وتتزاحم لتجد مكانًـا تشرب منه.

تساءلت أماني: «لعدم وجود الماء؟»

فأجابها سيدو: «لا. بل لأن تلك كانت منطقة الذئاب.»

همست أماني: «العمة فاطمة تقول إن الذئاب كانت تأكل الأطفال الذين يبتعدون عن الدار.»

تأنّى سيدو في الرد، «مثل كل الآخرين، علموها أن تخاف الذئاب. العمة فاطمة مخطئة. الذئاب لا تأكل البشر.»

«هي تأكل الأغنام!»

«ونحن نفعل ذلك أيضًـا. الذئاب تأكل الضعيفة والهرمة من القطيع.

هكذا خلق الله الدنيا.»

توقفت أماني عن الإصغاء. عند نهاية الكرم شاهدت الأشجار في الصف الأعلى من مدرجات الزيتون. هذا يعني أن أمها لم تعد بعيدة.

ورفعت أماني ذراعها وكفيها الداميتين.

سألها سيدو: «ما بك؟»

قالت متذمرة: «أتذكر بمَ وعدت أمي؟»

كل صباح، كل يوم، كانت أماني تسأل أمها السماح لها برعي الغنم.

«أمي، هل أستطيع أن أذهب مع سيدو اليوم؟»

وترد أمها متنهدة وهي تهز رأسها: «كل يوم، كل يوم تسأليننني. كل يوم أرد بالجواب نفسه. ملاحقة الغنم على قمة جبل عمل خطر لبنت. عمرك ست سنوات فقط. لا، ستكونين بأمان أكثر معي هنا في البيت.»

هذا الصباح، على الدرجات أمام مصطبة سيدو، انشغل أخواها وأبناء عمهم بجمع ما لديهم من شيكلات (5) لشراء بعض الأطايب من القرية المجاورة. أمّا ابنة عمها «وردة» ـ التي تكبرها بثلاث سنوات ـ فقد وقفت كعادتها موقف المعلم. كم كانت تحب ممارسة هذا الدور مع أماني، لتتخلص من دور التلميذ الذي عاشته طويلاً مع أخواتها الخمس الكبار.

قالت لها وردة: «ستتعلمين حين تذهبين إلى المدرسة يا أماني. البنات لا يمكن أن يصبحن راعيات. حين ينتهي الصيف ستنسين أمر تلك الأغنام الغبية نهائيًا.»

صرخت أماني: «أبدًا! سأكون راعية! اليوم!»

---

(5) االشيكل هو العملة الإسرائيلية.

هناك شخص واحد في هذا العالم يفهمها، سيدو. كان قد وصل إلى الحديقة وهو في طريقه إلى الحظيرة. لم يكن سيدو يتدخل أبدًا في خلافات العائلة. وحين يتجادل أولاده كان يطفئ سماعات أذنيه.

قفزت أماني من على المصطبة ولحقت سيدو. وشدت طرف ثوبه الطويل لتلفت انتباهه.

«هل تأخذني معك اليوم؟ أرجوك يا سيدو؟»

رفع حاجبيه.

صاحت: «أريد أن أكون راعية. وردة تقول إني لا أستطيع لأني بنت.»

وقطب سيدو حاجبيه وهو يفكر بذلك.

سألها: «هل لديك القوة لتسلق الجبل دون مساعدة؟ أنا عجوز جدًا ولا أستطيع حملك؟»

«نعم!»

ورفع يده الفارغة.

صرخت أمها من على المصطبة: «لا! ستصاب بأذى!»

تشبثت أماني بكل ما استطاعت أن تمسكه، عدة أصابع من يد جدّها المدودة. هل سيغير رأيه؟

«أعدك يا روز أن شيئًا لن يصيبها. سأعيدها إلى البيت بأمان، وإلاّ فيمكنك أن تبقيها في البيت حتى تكبر.»

كررت أماني وعد سيدو لأمها فيما كانت الأغنام تشرب بجانبهما عند الحوض. ومدت قميصها الدامي وهي تحاول منع نفسها من البكاء.

«لن تسمح لي أمي برعي الغنم ثانية إن رأت الدم.»

قال سيدو وهو يتفحصها بعناية: «همم، إذًا من الأفضل أن ننظفك.»

غسل سيدو ذراع أماني وكفيها، وأزال كل الدم الذي سال وجف، ثم مسح الجرح بلطف.

قال: «ليس عميقًا. سيلتئم ويختفي في بضعة أيام. أعطيني قليلاً من الوقت لأفكر بمشكلة قميصك.»

صفر لساحم ومضى بالقطيع للأسفل نحو مدرجات الزيتون ومن ثم إلى الحظيرة، وأماني تجر قدميها وراءه. في أي لحظة ستقابل أمها، وسترى قميصها والخدوش الحمراء على ذراعها.

لكنهما لم يذهبا إلى الأم، بل قابلا «ستي» جدة أماني. كانت تجمع الغسيل الجاف من على الحبل في باحة الدار، وتنشر المبتل مكانها.

سألها سيدو بصوت منخفض: «أين روز؟»

كانت هناك ثماني بندورات على كرسي مكسور بجانب سلة الغسيل الجاف.

لم تكن ذاكرة ستي جيدة؛ واعتادت العائلة على نظام يترك لها إشارات تساعدها على تذكر دخولهم وخروجهم.

حدقت ستي في البندورات وقالت: «روز مع فاطمة والحفيدات الست. ذهبن لقطف البندورة في البيت الزجاجي.»

قال سيدو: «لقد عرفت شيئًـا اليوم عن حفيدتنا السابعة. أماني تشبهني. لقد وُلِـدت أماني لتكون راعية.»

كانت أماني تتأرجح بشدة بين الخوف والرجاء، «ماذا عن أمي؟»

وضع سيدو إصبعه على شفتيه. «بماذا وعدتك؟ أن أعيدك بأمان. وقد فعلت.»

قالت ستي متذمرة: «يا لكما من زوج رائع! لقد ولدت مثل غنمة على

جبل. اعثر لها على شيء نظيف تلبسه.»

سحب سيدو قميصًا طويل الأكمام من على حبل الغسيل، وغيرت به أماني قميصها وهي سعيدة.

قالت ستي: «سأغسل أثر الدم الآن. لا أحد سيعرف شيئًا عنه.»

وبالفعل... لم يعرف أحد.

[3]

حلَّ اليوم الأخير من العطلة الصيفية بِوقعٍ يشبه لسعة النحلة.

على الفطور، ابتسمت العمة فاطمة لأماني، وهي ترفع لها زي وردة المدرسي الأزرق والأبيض القديم.

لكن أماني أخفضت رأسها، وأَعرضت عن النظر في عيني عمتها. كانت متيقنة أن الصيف سيدوم للأبد.

حاولت عمتها أن تقنعها بصوت عذب مثل العسل: «تعالي يا أماني. سأصغره لك ليناسب قياسك.»

وقفت أماني ورفعت يديها.

«أترين، أيتها البنت النعجة؟» همست وردة في أذنها، «لا بد من الذهاب إلى المدرسة.»

تخشّب جسد أماني، وحاولت ألاّ تسمح لزي ابنة عمها أن يمس جلدها.

أحسّت بالمزيد من لسعات النحل بعد تجريب الزي. سيدو كان يعاني الصداع، فطلب من عمر أن يصعد الجبل معهما. في كرم الزيتون توقف سيدو على المدرج الأعلى، وجلس على كنبة خشبية منخفضة، تحيط بجذع عريض لزيتونة عمرها ألف سنة.

قال سيدو: «سأستريح هنا قليلاً. الضوء يؤلم عينَيّ. عمر سيتابع معك.»

ما الذي يظنه سيدو؟! عمر يحب العلوم وليس الغنم. ماذا لو حاول عمر أن يفرض سيطرته عليها وعلى الأغنام معها؟!

لكن عمر اكتفى بالجلوس على سور حجري ليقرأ كتابًا عن الكهرباء. كان يمكن له أن يجلس في مكانه هناك طوال النهار لو أن ساحم لم ينبح عليه ليتحرك.

على القمة سرحت أماني بعيدًا بالغنم، وارتفع أذان الظهر من مسجد القرية.

الله أكبر، أتى صوت المؤذن العالي مترنمًا. الله أكبر.

عادت أماني إلى أخيها.

«عمر، هل المؤذن عملاق؟»

رمى عمر برأسه للوراء مطلقًا ضحكة عالية.

«المؤذن رجل يا بلهاء.»

«لكن صوته ضخم.»

قال وما يزال يضحك: «إنها مكبرات الصوت، توجد على سطح المسجد لترسل أمواجًا صوتية.»

رددت أماني مغتاظة: «أمواج صوتية!» وكرهت أن يدعوها بلهاء.

بدا عمر سعيدًا وهو يلقي عليها محاضرة: «الصوت هو سلسلة من أمواج الضغط التي تتحرك في الهواء بسرعة ثلاثمئة متر في الثانية.»

ولوحت بيدها في الهواء الفارغ: «أين؟ ليس هناك أي أمواج.»

أغلق عمر الكتاب، وأشار إليه بسبابته: «إليك بالحقائق، فاسمعي.

المؤذن هو رجل. إنه يرفع الأذان خمس مرات كل يوم في مكبر الصوت. صوته ينطلق عبر الوادي محمولاً على أمواج صوتية. شيء جميل أنك ستذهبين إلى المدرسة غدًا. لو أمضيت مزيدًا من الوقت مع هذه الأغنام فستصبحين غبية مثلها تمامًا.»

عندها انفجرت أماني بالبكاء، وركضت على المنحدر عبر الكروم إلى مدرج الزيتون الأعلى.

«أهناك مشكلة يا أماني؟»

سيدو الذي كان جالسًا على الكنبة المظللة نظر إليها، ومد يده.

مسحت دموعها، واقتربت من جدّها مطأطئة الرأس، ولم تتوقف إلاّ عندما أصبحت أمام قدمي سيدو.

أخذ يطقطق طرف أحد نعليه بالآخر، كعادته في الترحيب بها كلما أعرضت أماني عن النظر في وجه الكبار.

«اجلسي معي يا أماني.»

واندست بين ذراعيه.

«ماذا حصل؟»

«عمر...»

هزها سيدو بلطف، «كان عندي إخوة أيضًا، وكنا دومًا نتشاجر، لكن ليس بالسوء الذي يبلغه أبوك وعمك. حين تصبحين في عمري، ستحمدين الله على احتياجك للسماعات؛ فبإمكانك على الأقل إغلاقها.»

مسحت أماني أنفها الذي كان يسيل.

قال سيدو: «أتشمين أشجار الزيتون؟»

أومأت برأسها إيجابًا.

«إنه أجمل عطر في فلسطين. بل أجمل من أزهار عمتك، لكن لا تخبريها أني قلت ذلك.»

أراحت أماني رأسها على كتف جدّها. وامتزجت معًا روائح أخرى: صابون زيت الزيتون، رائحة الحطب من تنور ستي، رائحة صوف عباءته المغزول في البيت. رائحة سيدو.

«أنا لا أريد الذهاب إلى المدرسة.»

توقف عن الهز، «ألا تريدين أن تصبحي ذكية مثل عمر؟»

هزت رأسها نفيًا. «أنت بنت. يومًا ما سيكون عمك هو من يتخذ القرارات في العائلة. لكنه لا يتخيل كيف يرغب فرد من العائلة أن يصبح راعيًا.»

لكن سيدو يفهم. بدا كلامه وكأنه يمكن أن يفهم.

«أنا لا أقول نعم أو لا يا أماني. أعطيني بعض الوقت لأفكر بالأمر.»

على مصطبة دار سيدو، اجتمعت العائلة في تلك الأمسية للعشاء أبكر من العادة. ومع أن دار عمها كانت ملاصقةً لدار سيدو، إلا أن أبناء عمها كانوا آخر من وصل وهم يتحادثون عن المدرسة.

نظرت أماني إلى جدّها. تُرى!! أي طريق ستمضي فيه غدًا؟ أتمضي مع جدّها في طريقه لترعى الأغنام؟ أم تتخذ ذلك الطريق فوق دارهم في الاتجاه المعاكس للوادي، الطريق الذي يسلكه أبناء عمها وأخوها إلى المدرسة؟

بدأ سيدو بسم الله وأخذوا يأكلون.

الكل كانوا جائعين، وساد الصمت على المائدة إلى أن قالت الأم فجأة: «أماني ستتوقف عن رعي الغنم؛ فالمدرسة تبدأ غدًا.»

قال سيدو بهدوء: «كلاّ، إنها لن تذهب.»

توقف الجميع عن غمس الخبز في صحون الخضار الساخنة على الطبلية. حدقت أماني في جدّها، ثم في أمها، متسائلة إن كانت ستقول شيئًا، إلا أن عمها هاني، الابن الأكبر لسيدو، هو الذي تحدث.

«كل الأولاد يذهبون إلى المدرسة.»

«لقد أصبحت عجوزًا. ربما تأخذ أماني مكاني من بعدي وتصبح راعية ذات يوم. أريد أن أعلّمها المهنة.»

احْمَرَّ وجه العم هاني، «الفلسطينيون لا مستقبل لهم إن ظلوا رعيانًا.» لم يكن أبوها أقل انزعاجًا. سأله: «كيف يمكن لأماني أن تحصل على عمل جيد إن لم تكن متعلمة؟ أريدها أن تذهب إلى المدرسة مثل عمر.» أومأت أمها والعمة فاطمة موافقتين، «مثل أولاد عمها. كل البنات في القرية يذهبن إلى...»

قال سيدو: «لقد قررت. عارف وروز، يمكنكما تعليمها القراءة والكتابة في المساء. عمر، أنت تعلمها الحساب والعلوم. أماني سريعة التعلم. إن علمتموها جيدًا فلن تتأخر عن غيرها من الأولاد.»

تمنت أماني لو أنها تصيح مثل ديكهم. كان سيدو هو رأس العائلة، وكل الكبار يطيعونه، حتى عمها، على الرغم من أن عينيه كانتا تنكران الأمر طوال الوقت الذي أمضاه وهو يشرب قهوته.

بعد العشاء اقترحت وردة أن يلعبوا الغمّيضة في كرم العنب. سبقت أماني أولاد عمها وهبطت الطريق نحو درب الجرار الذي يعبر الوادي نحو دارهم. على جانبيها كانت الأوراق الخضراء تغطي الدوالي العالية، وتتدلى عناقيد العنب في ظلالها. كانت مكانها المفضل للاختباء من أولاد عمها.

خاب أمل أماني لأنهم لم يلعبوا سوى دور واحد؛ إذْ كانت أذهان البنات مشغولة بتجهيز زيهن المدرسي ولهذا ذهبن إلى الدار.

التقطت أماني حصاة من على الأرض وهي تمشي مع عمر. أمامهما كانت دارهم، وهي نسخة مطابقة لدار جدّها ودار عمها. لونها أبيض، طابق واحد، بكتلة إسمنتية من الخارج. الفارق الوحيد هو أن دارهم لا مصطبة لها.

أدار عمر رأسه لينظر إليها.

«سأعلمك درسًا في العلوم إن جمعت مزيدًا من الحصى مختلفة الأحجام.»

منذ شجارهما أصبح ألطف. ولأنها أحست بأن الأمر شبيه باللعبة فقد وافقت على أن تتعاون. وتبعت عمر إلى البئر بجانب حدائق خضار أمها بجيب مليء بالحصى.

«رتبيها في صف من الأكبر إلى الأصغر. سنقوم بتجربة.»

«وما هي؟»

«شيء يفعله العالِم عادة. نبدأ بطرح السؤال ثم نقوم برصد الحقائق لنستخلص نتيجة.»

«طيب. ما هو السؤال؟»

«فهم الأمواج. أسقطي حصواتك بداية بالأكبر في البئر، وأخبريني بكل ما ترصدينه من حقائق.»

ارتطمت الحصاة بالماء وغابت تحت السطح. وأخذت دوائر كبيرة غامقة تنتشر على الماء.

ثم ألقت أماني حصاة أخرى، وأخرى.

«الأمواج تصبح أصغر بعد كل حصاة.»

ابتسم عمر وهو ينظر إليها، «ما الذي يجعل الأمواج تصبح أصغر في كل مرة؟»

«الحصى. فكلما أصبحت الحصاة أصغر تصبح الأمواج أصغر.»

صفق لها عمر، «أترين؟ أنت عالمة جيدة.»

لم تعرف أماني ما الذي يحبه عمر في العلوم. لكن لأن الأمر أسعده، فقد ألقت بباقي الحصى وأعادت الخلاصة. كلما صغرت الحصاة اختفت الأمواج بشكل أسرع.

لم تخبره بأن كلمات سيدو على العشاء ما زالت تتلاطم في ذهنها.

ما الذي عناه سيدو بقوله إنه أصبح عجوزًا؟ وأنها يمكن أن تأخذ مكانه ذات يوم؟ هل سيموت؟ كان تخيل الأمر مروعًا جدًا.

أخذت أماني آخر حصاة معها، صغيرة بقدر حبة العدس، وتخيلت أنها تحمل تلك الفكرة المروعة، ورمتها في البئر.

لم تخلف الحصاة أي أثر وراءها، ولا أدنى موجة.

[4]

مرّت سنة. كبرى بنات عمها، نهلة، تخرجت من الثانوية. وقدم شاب من الخليل ليطلبها للزواج من جدّها. وانتهى فصل الصيف بأسبوع من احتفالات الزفاف، ثم تركتهم نهلة لتعيش مع عائلة زوجها.

في الأمسية التي سبقت أول أيام المدرسة، كانوا ثلاثة عشر فردًا مجتمعين حول مائدة العشاء على مصطبة سيدو. وقبل القهوة، أشار العم هاني بسبابته إلى أماني.

«المدرسة ستنفعك. ألا تريدين لحياتك أن تكون مثل حياة نهلة؟ أرأيت كيف تتصرف الفتاة المسلمة الصالحة!»

«هل تريدني أن أذهب إلى المدرسة من أجل أن أتزوج؟»

ونفخ متأففًا وكأنه نفّاخة انفلت منها الهواء، «لا! أريدك أن تتعلمي الطاعة. السعي وراء الأغنام لا يليق بالبنات. لا أحد سيرغب بالزواج منك.»

توقفت أمها عن الأكل، «البنات يحلمن بكثير من الأشياء، ليس بالزواج فحسب.»

قال سيدو: «انتهى. ما دُمْتُ على قيد الحياة فأماني ستتدرب معي.»

أصرّ عمها، «وماذا بعد أن ترحل؟ لن نربي الأغنام في المستقبل.»

ضحك سيدو: «ولمَ لا؟ هل ستتوقف عن أكل اللحم؟»
«نريد أن نركز طاقتنا على محاصيلنا وعلى محاربة الاحتلال.»
«كم احتلالاً مرّ على فلسطين. الإسرائيليون سيكفّون ويرحلون عن أراضينا نهاية الأمر.»
«ليس هذه المرة. الإسرائيليون يسمحون للمستوطنين بالاستيلاء على مباني العرب في الخليل ويرسلون الجنود لحمايتهم. لقد أغلقوا شارع الشهداء، ووضعوا المزيد من الحواجز العسكرية. الأمر يصبح أكثر خطرًا بمرور كل سنة في المدينة القديمة. الدكاكين مغلقة والكثيرون يرحلون. لا يمكننا أن نأخذ الأطفال مع محصول الزيتون هذا الخريف.»
لن نأخذهم إلى الخليل؟ كيف أمكن لعمو هاني أن يقول شيئًا مثل هذا؟ حتى ستي تحب صعود ظهر الشاحنة في موسم القطاف. هناك يستمتعون بالتسوق في السوق المفتوح المزدحم وزيارة أقاربهم. وبعد أخذ الزيتون إلى المعصرة كانوا يأكلون البيتزا في المطعم ويسهرون حتى منتصف الليل.
وماذا عندما يوجه الجنود ذوو الخوذ بنادقهم إليهم؟ كانت أماني تتشبث بيد أمها وتقلد حركات الكبار. لا تتحرك فجأة. امتثل لأوامر الجنود. انتظر بهدوء على الرصيف حتى يسمحوا لك بالحركة.
قال سيدو بلا اكتراث: «هذه هي المدينة.»
هز عمو هاني قبضته. «إنه آتٍ إلى هنا أيضًا. لقد صادر الإسرائيليون مؤخرًا الوادي إلى الشمال من هنا. كيف ستسرح بقطيعك الكبير إذا ما أخذوا مرعاك؟»
هذا الأمر فهمته أماني. لأن سيدو منعها هذا الصباح من اصطحاب

الأغنام إلى السفح الشمالي للجبل. قال لها: «لم يعد بمقدورنا الذهاب إلى هناك. لقد أعلنها الإسرائيليون منطقة أمنية.»

نظرت شرقًا إلى مضارب البدو. لم تكن هناك خيام، ولا حبال الغسيل الملونة، ولا حيوانات تحت أشجار السنط. لقد رحل البدو.

أمام عمها، أخفى سيدو الحزن الذي رأته أماني عليه طوال اليوم.

«ما يزال لديّ الجبل والوادي»، وابتسم ليرتفع جانبا عينيه، «طالما كنت تلح علي طوال سنين لأخفف قليلاً. الوقت مناسب لبيع عشرين رأسًا أو نحو ذلك من القطيع. خذ المال أنت وعارف لبناء ذلك البيت الزجاجي الجديد الذي تلح عليه.»

مرت سنة سعيدة أخرى، مثل سعادة الأغنام وهي في طريقها إلى قمة سيدو. وتخرجت بنات عم أماني من الثانوية ولم يتبق في البيت إلا وردة. وللأسف فقد انتشر اللقب الذي أطلقته وردة على أماني في القرية، وأصبحت البنت النعجة معزولة عن الأحاديث والألعاب، غير أن أماني لم تكترث لذلك. كانت تتعلم كيف تقوم بدور القابلة في الولادات المتعسرة والاهتمام بقطيعها مع جدّها.

في إحدى ليالي الربيع وقد بلغت أماني 12 عامًا، أصيب حمل بعدوى يرقة الذبابة الحلزونية ومات في الحظيرة. وقفت أماني وجدّها على باب الحظيرة ينظران إلى جيفة الحمل التي يغطيها الذباب، فيما أمه تنوحُ بجانبه.

قال سيدو: «اذهبي ونادي أباك أو هاني ليساعدني في إخراجه من الحظيرة.»

عرفت أماني أن من المهم الإسراع في فعل ذلك حتى لا تنتشر العدوى.

لكنها ترددت؛ لأن فكرة لمس الجيفة المتخشبة أشعرتها بالغثيان.
انتظر سيدو، ثم قال بهدوء: «الأغنام تحزن على الأموات تمامًا مثلنا نحن. والراعي الطيب يحترم ذلك فيها ويساعدها على أن تتجاوز خسارتها.»
أنصتت أماني إلى الثغاء داخل الحظيرة. كانت الأغنام الأخرى حزينة، وأحاط العديد منها بأم الحمل محاولة تعزيتها.
قالت أماني: «أعطني القفازين الآخرين. أستطيع أن أقوم بذلك.»

[5]

أتى صيف أماني الثالث عشر بثلاثة تغييرات مهمة: الأول في جسدها. إذ استمرت وردة طوال شهور تتصرف وكأن لها الحق في أن تسأل: «ألم تأتِكِ الدورة بعد؟» كانت نبرة صوتها تحمل نصيحة مضمونة لو أن أماني أومأت بالإيجاب، وهو ما جعل أماني تشعر بالسرور حين وجهت وردة السؤال آخر مرة، فقد تمكنت أخيرًا من أن تجيب بنعم، «لقد علمتني أمي ما الذي يجب أن أفعله. هل تريدين أن تتعرفي على الدورة عند النعجة؟»

ولكن، لم يكن ذلك ما ترغب فيه وردة.

أكثر ما كان يثير أماني هو بحثها عن بيطري، بعد أن قلص سيدو عدد القطيع إلى سبعين رأسًا فقط وظل ما تبْقى منها غاليًا جدًا على قلب أماني.

سألت أخاها: «ألديكم في المدرسة أي كتاب عن العناية بالأغنام؟»

«سأسأل الآنسة عبوشي. هل حاولتِ إيجاد بيطري؟»

رفع سيدو حاجبيه مستغربًا: «بيطري؟! وما الذي يمكن لغريب أن يقوله لي عن أغنامي؟!»

استفادت أماني أفكارًا كثيرة من الكتاب الذي أتى به أخوها إلى البيت

من عند الآنسة عبوشي. قرأت فيه قليلاً عن الدورة الرعوية في مرعى الأغنام، وعن ضرورة إعطاء كل الحيوانات في الوادي لقاحات ضد الأمراض المعدية، فأومأ عمر برأسه إعجابًـا.

لهذا حينما ذهب أبوها إلى المدينة لحضور اجتماع، أقنعه عمر بأن يأخذهما معه إلى مقهى إنترنت قريبٍ من الباب الشرقي. «هو ليس قريبًا أبدًا من شارع الشهداء، وستبقى أماني معي بأمان.»

أعانها عمر في العثور على بيطري حكومي وأن ترسل له رسالة إلكترونية. وحين عرف البيطري عمرها واهتمامها بأن تربي قطيعًا قويًا، وافق على أن يزورهم في الخريف. وهل سيحب أصغرُ راعٍ في فلسطين أن يشارك في تجربة؟ أجابت أماني: «نعم، طيب.» سيأتي البيطري معه بمفاجأة.

غرقت أماني في خططها تلك لدرجة أنها لم تلحظ التغيير الثالث حينما بدأ، كان ذلك التغيير في جدّها. كل ما لاحظته هو أن جدّها في الصباح الأول جلس على الكنبة الخشبية التي تحيط بشجرة الزيتون العتيقة. في ليل أغسطس الحار، حبس الوادي حرارة النهار الخانقة، وانضمت أسرة أماني إلى بيت عمهم للنوم مع الجدّين على مصطبتهما الكبيرة. أمضى الجميع ليلتهم تلك وهم يتقلبون دون نوم بانتظار أن تهب نسمة هواء.

قال سيدو ملوحًا لها أن تمضي: «خذي الأغنام ترعى فوق وحدك يا أماني.»

«هل تعاني من صداع؟»

«لا، أنا متعب. لا تشغلي بالك.»

ولكن في اليوم التالي عاد سيدو ليجلس على الكنبة ثانية، بل وفي كل يوم بعدها، إذ بدأت الشمس تؤلم عينيه. ولأن طريق الصعود كان طويلاً جدًا، اقترحت أماني أن تنفذ الدورة الرعوية على أرض المرعى فقد كانت القمة بحاجة لاستراحة من الرعي. أومأ سيدو موافقًا: «طيب.» وسمح لأماني أن تأخذ القطيع لأي مكان تريده. كان يرغب بالراحة في ظل كرم الزيتون.

في الليلة التي سبقت افتتاح المدراس، ذهبت أماني إلى المطبخ لتساعد عمتها في إحضار القهوة، حينما قال عمها كلمات جعلتها تشد بيديها على الصينية.

«بدأ الإسرائيليون شق طريق سريع للمستوطنين، ويبدو لي أنه يتوجه نحو وادينا، وإن حدث ذلك فسوف يخترق حقولنا جميعًا.»

وانسكبت القهوة بقعًا على الصينية.

سألت العمة فاطمة وهي تأخذ الصينية منها: «وكيف يبنون طريقًا سريعًا على أراضينا؟ هذا مخالف للقانون.»

«إنه يحدث في كل فلسطين، هم يبنون المزيد من المستوطنات ولا أحد يمنعهم. الأمر يتوقف علينا نحن. يجب أن نقاومهم قبل أن يفوت الأوان.»

هزّ أبوها رأسه: «ليس بالسلاح.»

ارتجفت يدا أماني. طريق سريع يعبر حقولهم !! قتال!!.

جلس عمر متوترًا ومتيقظًا، وعيناه الحائرتان تتنقلان من أبيه إلى عمه.

وضعت أمها يدها على ذراع أبيها، غير أنه لم يسكت.

«التظاهر طريقة جيدة للمقاومة. هناك ناشطو سلام في فلسطين

وإسرائيل، ومنظمات المجتمع الدولي ـ التي يمكنها أن تساعدنا ـ تقاوم دون عنف.»

«طريقتك عديمة النفع! الإسرائيليون يستخدمون القوة العسكرية لأخذ ما يريدونه. كم قرية يجب أن يدمروا قبل أن تقاتل معي؟» ومد العم هاني يده وهو يكاد يشد أذن أبيها: «ليس قريتي، ليس حقولي. سوف أرد على السلاح بالسلاح.»

صفقت الأم بكفيها: «كفى! أنتما الاثنان. ألا تريان أباكما متعبًا؟ اتركاه يتكلم.»

رفع سيدو يده المرهقة: «روز معها حق، حديثكما عن القتال يرهقني. دعونا نتابع حياتنا مثلما كانت دومًا. أنتم تزرعون الأرض، وأنا وأماني نرعى الغنم.»

لكن العم هاني لم يكن من السهل إسكاته، «إسرائيل لن تسمح لنا بمتابعة حياتنا كما هي دومًا، إنهم يريدون أرضنا وماءنا، وسيستخدمون أي وسيلة ليأخذوها. سيخيفوننا بجنودهم ويرمون بنا في السجن، سيسمحون للمستوطنين بأن يحيلوا حياتنا إلى جحيم، سنتوسل إليهم أن نرحل عن بيوتنا..»

قاطعه سيدو: «أنا أوافق عارف، فلن نصل إلى السلام بالعنف. هم لا يثقون بنا.»

«وأنا لا أثق بهم.»

وبقيت القهوة على حالها دون أن يمسّها أحد.

ثم قال العم هاني لأبيه فجأة: «رأيتك تستريح في كرم الزيتون. أنت مريض، أليس كذلك؟»

«أنا متعب، هذا كل ما في الأمر. انتظر حتى تصبح في عمري، وحينها ستستريح مثلي.»

«لا يا أبي»، توقف العم هاني قليلاً، «ما الذي تتعلمه أماني؟ أن تتجنب الواقع مثل جدها المحتضر؟»

وحدقت أماني في سيدو. يحتضر؟ لِمَ يروعهم العم هاني بهذه الطريقة؟

كان الجواب واضحًا، فهكذا تعوّد أن يفرض إرادته، وهكذا كان يسيطر على العائلة بطريقته.

[6]

أخذ الزيتون يغتسل على أشجاره بمطر الخريف جاهزًا للقطاف، حين وصل الطبيب البيطري الحكومي. سُرَّت أماني. وكذلك سيدو. إذ أن من شأن زائر أن يحوّل انتباه الوادي. بعد ذلك الجدال على المصطبة، نقلت فاطمة ووردة الشائعات في القرية. ولمدة شهرين ملأ الزوار المصطبة.

«هل تشعر بآلام؟»

«كيف هو حالك اليوم؟»

كان سيدو يكره تلك المبالغة بقدر كرهه للجدل.

أبو أماني وعمها هاني طلبا منه أن يذهب إلى طبيب في مستشفى الخليل، غير أن ذلك كان عملاً محفوفًا بالمخاطر الكبيرة، فقد كانت المعارك تدور في شوارع المدينة. وازداد الوضع تعقيدًا مع أعمال بناء الطريق السريع الجديد للمستوطنين الذي جعل السفر أمرًا صعبًا. لقد وضع الإسرائيليون حواجز إسمنتية على طول الطريق نحو الخليل، فلم يعد مسموحًا للسيارات أن تدخل المدينة عبر الباب الشرقي، وأصبح الطريق الوحيد المتاح نحو بوابة مفتوحة هو طريق دائري فوق التلال، حتى أطلق عليه أبناء القرى اسم الطريق العابر للتلال.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

كان أبوها يمضي وقته على الهاتف الخليوي. وعبّر عمها هاني عن امتنانه حين أثمرت جهود أبيها عن إحضار عيادة متنقلة إلى القرية. عربة بيضاء تحمل هلالاً أحمر على بابها، أخذت عيّنات من دم سيدو للمختبر.

لكن وصول البيطري أنسى أماني القلق على سيدو. وقاد الزائر أماني إلى حظيرة الغنم.

قال: «هذه السلالة الرومانية تعطي لحمًا ونسلاً أكثر. كل ما أريده منك هو أن تسجلي بدقة كل ما تلده من حملان وأنسالهم كل ربيع.»

جثت أماني لتتأمل بإعجاب الغنمة الصغيرة القوية، ووجهها الأسود الجميل.

قالت: «سأسميك رومانيا»، واحتضنتها مرحبةً بها. معظم الأغنام البالغة تكون متحفظة مع الأغراب، إلا أن رومانيا لثمت خد أماني.

«انتبهي!» حذرها البيطري وهو يراقبهما من وراء الحاجز، «هذه هي حيلتها المفضلة. لقد تدلّلت حتى أفسدناها. في المرة التالية ستطلب منك غرفة خاصة في البيت، لهذا كوني صارمةً معها.»

لكن أماني لم تهتم، بل احتضنت رومانيا ثانيةً.

جلس سيدو على كرسي أثناء حديث أماني مع البيطري. وأشارت إلى حمل يحك نفسه بعمود السور، يبدو صوفه تحت إليته لامعًا وأخضر منتنًا. لقد أصيب بالإسهال وهو يرعى في الوادي الرطب بعد المطر الغزير. ومع أن أماني جزّت الصوف من تحت إليته إلا أن الذباب ظل يحوم حول مؤخرته.

«سيموت قريبًا إن لم تتخلصي من يرقات الدودة الحلزونية. ثبتيه

على الأرض.»

وفتح البيطري حقيبته الجلدية السوداء فيما أمسكت أماني بالحيوان على الأرض. وسكب البيطري جرعة دواء في حلق الحمل المنزعج.

«تلك الذبابات التي تحوم قد وضعت بيوضها، وستتغذى يرقاتها على أي شيء تستطيع أن تصل بأفواهها الصغيرة إليه. عضاتها تسبب الحكة؛ ولهذا فهو يحك جسمه دون أن يعلم أنه بذلك إنما يفتح جروحًا طازجة. وجلده المجروح يوفر الغذاء لمزيد من اليرقات مما يفاقم مرضه.» ثم قال البيطري مترددًا: «عليك تنظيف مؤخرته المصابة بالعدوى تمامًا للتأكد من أنها لن تعود. أبمقدورك فعل ذلك؟»

لم تحب أماني تلك اليرقات الدقيقة الصفراء المتعرجة.

«نعم.»

أعطاها مقصّ جزٍّ معدني، وعلمها كيف تجزّ وتقص بسرعة المزيد من الصوف على ظهر الخروف. أخذت اليرقات تغوص في عمق الصوف محاولة الهرب كلما اقترب منها المقص.

كانت أماني تحادث الخروف بلطف: «لا مزيد من اليرقات ستصيبك، حبيبي.»

أخيرًا قال البيطري: «هذا يكفي»، فقد انتهت أماني من جز كل الصوف المصاب، معريةً حلقة كبيرة من اللحم الوردي حول ذيله الأبيض الرفيع.

ثم قال وهو يعطيها علبة: «بعدها الترماسين. إنه يلسع، ولهذا سأمسكه.»

تلوى الخروف من الألم فيما كانت أماني ترش الدواء الأزرق اللماع

المضاد للجراثيم بيد ثابتة.

«هذه الخطوة الأخيرة ستقتل كل البيوض المتبقية، وتمنع الذباب من العودة لعدة أيام.» رفع البيطري غطاء العلبة البلاستيكية ووضعها تحت أنف أماني.

ابتعدت أماني للخلف بسرعة هربًا من الرائحة النفاذة، وحينذاك ابتسم البيطري.

«هذا بالضبط ما نريد أن يفعله الذباب. ادهني به ظهره وساقيه الخلفيتين. أنت راعية جيدة يا أماني.»

جلست أماني بجانب البيطري في سيارته وعرّفته على بقية رعيان القرية. كلهم رحّبوا بالضيف الذي أعطى أغنامهم لقاحات ضد الحمى المالطية وغيرها من الأمراض المعدية. وأدركت أماني أن البيطري يعرف عن الأغنام أشياء لا يعرفها حتى جدّها.

حين انقضت الزيارة قدمت أماني للبيطري العون في حمل أشيائه إلى شاحنته. حيث رفض البقاء للعشاء معهم خشية إغلاق الطرقات.

«هل ستزور الوادي الربيع المقبل؟»

«في موسم الولادات أكون مشغولاً جدًا، سأحاول أن أجد الوقت لذلك، لكنني لا أستطيع أن أعدك. أرسلي إلي أي سؤال تريدين بالبريد الإلكتروني.»

في المطبخ، على الجانب الخلفي من البيت، قطعت أماني الخيار لإعداد سلطة طازجة باللبن. أخذت أمها ما تبقى في البراد من الفلافل وهي تدندن مقطوعة جديدة كانت تعزفها على البيانو. وحملتا العشاء إلى الغرفة التي تطل نافذتها على كرم العنب.

أكلَتا فيما كان الليل يهبط بسرعة على الوادي باردًا رطبًا. ارتفع سعر الوقود؛ فبقيت المدفأة في الزاوية غير موقدة. ما زالوا ينتظرون ليالي أكثر برودة. أحضرت أمها لكل منهما كنزة دافئة فيما كانت أماني تنظف المكان. ستذهبان لشرب القهوة في بيت سيدو.

خَطَت أماني للخارج. مليار نجمة كريستالية كانت تضيء السماء.

وراء عمر بخطوات، ركضت أماني عبر كرم العنب لتبقي نفسها دافئة. على الجانب الأيسر من درب سيدو ظهر بيت العم هاني مظلمًا، بينما كان الضوء يشع من نافذتين في بيت سيدو.

تبعت أماني عمر إلى الداخل مشدودة لصوت التلفزيون في الصالون، حيث وجدت عمتها وعمها ووردة على كراسيهم يتابعون الأخبار، فأخذ عمر الكرسي الهزاز المريح، بينما كانت ستي نائمة وهي متكومة مثل قطة صغيرة على طرف الأريكة الطويلة التي تكتّل فرشها، أما سيدو فكان ملتفًا ببطانية على طرفها الآخر. أومأ لأماني مشيرًا لها كي تأتي وتجلس بجانبه.

ساد التوتر أنحاء الغرفة، وقبل أن تنظر أماني إلى الشاشة عرفت أن الأخبار كانت سيئة. فالناس في كل فلسطين قد سئموا الاحتلال، وحدثت أعمال شغب وتظاهرات أصيب البعض فيها بالرصاص.

نظرت أماني إلى الشاشة ليصيبها الغثيان، فقد رأت أناسًا واقفين يصرخون على رصيف ملوث بدم، بجانب حفرة كبيرة متفحمة. جلس والدا أماني وكان المذيع يعيد تفاصيل تفجير انتحاري في إسرائيل.

«... في وقت متأخر من مساء أمس في شارع بن يهودا...»

قالت أمها بصوت كَسير: «القدس.»

«... في هذا المجمع التجاري الذي يقصده الكثير من المشاة. أحد عشر شابًا تتراوح أعمارهم بين الرابعة عشرة والحادية والعشرين لقوا مصرعهم على الفور جراء انفجارين. بعدها بعشرين دقيقة وقع انفجار ثالث في سيارة متوقفة.»

صاح أبوها غاضبًا: «أطفال أبرياء قتلوا، ولأي سبب؟»

فصرخ العم هاني في وجهه: «لأنهم يعيشون في بيوت وأرض سرقوها منّا ولا يبالون. يريدون الأمن لأنفسهم فيما أربعة ملايين فلسطيني ما يزالون لاجئين. هم يحتلون أرضنا ويضعوننا في السجون. هذا قتال من أجل حريتنا.»

واهتز كرسي عمر بعنف، «المفجرون شهداء.»

قال أبوها بخشونة: «لا تتكلم بهذه الطريقة. من أين تعلمت ذلك؟ القرآن لا يعلمنا أن نقتل المدنيين والناس الأبرياء.»

ارتفعت قبضة العم هاني وهو يصيح: «أبرياء؟! ليس هناك إسرائيلي بريء. لِمَ نتركهم يعيشون بسلام؟ إنهم لا يستحقون ذلك.»

«هذا أكثر ما قلته جنونًا يا هاني. كل ابن آدم من حقه أن يعيش بسلام. لهذا السبب هم لا يثقون بنا.» وأشار أبو أماني إلى الأم الباكية التي تتحدث على التلفزيون، «كيف عرفت أنها لم تكترث بنا من قبل؟ كيف ستكترث بنا الآن؟»

واختفت الصورة من الشاشة. فقد وقف سيدو بجانب التلفزيون وسحب إصبعه من على زر التشغيل.

قال: «أنا متعب. حان وقت صلاة العشاء. اذهبوا لبيوتكم جميعًا،

وأقيموا الصلاة.»

تحركت أم أماني إلى الباب مسرعة، وهي تنظر إلى زوجها. لقد حان وقت العودة إلى البيت.

مشت أماني بجانب عمر خلف والديهما ـ عائدين عبر كرم العنب ـ وهم ينصتون إلى لعنات أبيها. لقد كان حانقًا لأنه تجادل مع هاني.

لاطفته الأم بصوت ناعم: «ألست سعيدًا لأن بيتنا بعيد على الجانب الآخر من الوادي؟ كل أسرة بحاجة لأن تبقى بعيدًا قليلاً. من الآن سنشاهد الأخبار في بيتنا.»

قبل أن تدخل، نظرت أماني إلى الوادي. شاهدت أوراق الدوالي تنساب مثل نهر مظلم تحت ضوء القمر، ودرجات المصاطب تتوالى واحدة بعد أخرى على كل تلة. مئات أشجار الزيتون، كل منها عمره مئات السنين، ذكّرتها بأن احتلالات أخرى مضت وهم بقوا. وهم سيبقون الآن ويمضي هذا الاحتلال أيضًا، إن شاء الله.

توقف العمل في الطريق السريع فجأة في اليوم التالي. وعلى الرغم من المطر الغزير، مشى أبوا أماني إلى القرية لحضور اجتماع. في أعلى الوادي، طرد مستوطنون إسرائيليون مسلحون مزارعين خارج كرومهم، وأحرقوا عدة بيوت. وحدث تفجير انتحاري آخر في حيفا. حاول عمر أن يشغل التلفزيون لكن الصورة كانت مشوشة مثل الصوت.

سألت أماني: «أبسبب المطر؟»

أجاب: «لا. لقد قطعوا عنا معظم إمدادات الكهرباء لمعاقبتنا. أريد أن أعرف ما الذي حدث لياسر؟»

بوجود أبويهما خارج البيت، تحدث عمر بحرية عن أصدقائه في

الخليل. الكثير منهم التحق بخلايا المقاومة للقتال في الشوارع. اثنان منهما أمسكوا بهما ووضعوهما في السجن.

«أحدهم أبلغ عن ياسر. الليلة الماضية أتى الشين بيت (6) للبحث عنه، لكنه اختفى، ذهب ليختبئ.»

«أين؟ هل تعرف؟»

أومأ عمر موافقًا، والتمعت عيناه بالإثارة.

«إن لم آت إلى البيت من المدرسة ذات يوم فقولي لهم إني أقاتل الإسرائيليين.»

«وماذا عن المدرسة؟ أن تصبح عالمًا؟»

«الحرية أكثر أهمية.»

منذر، الأخ الوحيد لسيدو، أتى من الخليل في اليوم التالي لقطاف الزيتون، وأتى معه بآخر الأخبار. حظر التجول حوّل المدينة إلى سجن. وكانت سيارة الأجرة التي أقلّته آخر سيارة سمحوا لها بمغادرة الحاجز العسكري. الدبابات الإسرائيلية وصلت ووجهت مدافعها الطويلة نحو أحياء المدينة التي يختبئ فيها المقاومون الفلسطينيون. المروحيات تهدر فوق البيوت والمحلات. وسيارات الجيب العسكرية الإسرائيلية تسير في الشوارع لتحذر الناس بمكبرات الصوت أن كل من يفتح بابًا أو حتى نافذة سيتعرض للرصاص.

حين كانت أماني في السادسة تعلمت أن ترصد المشكلات في مكان واحد: الزاوية الجنوبية الشرقية لقمة سيدو. أما اليوم فالمشكلات أصبحت تهديدًا ماثلاً من كل الاتجاهات، حتى من السماء.

---

(6) الشين بيت هي جهاز الأمن الداخلي في إسرائيل.

[7]

نهضت أماني من نومها مع رفع أذان الفجر، وارتدت ملابس دافئة، ثم عبرت الوادي ركضًا نحو حظيرة الأغنام، حيث وجدت سيدو ينتظرها لأول مرة منذ أسابيع.

قال: «علينا أن نتحدث بشيء قبل أن يفوت الأوان.»

«إلى أين نحن ذاهبان؟»

«إلى الحرش.»

فتح باب الحظيرة للأغنام. وأثناء صعودهما بين أشجار الزيتون، خففت أماني سرعة مشيتها لمسايرة خطوات جدها البطيئة. أخذ سيدو يلهث وهو يجر خطواته القصيرة المتثاقلة. وحين تجاوزا آخر صف أشجار إلى الحرش، رمى سيدو نفسه على الحائط الحجري. بدت عيناه غائرتين في محجريهما وكأنهما في كهفين صغيرين، ولم يعد في جلده العتيق أي مسحة للصيف، شتاءٌ فحسب.

عرفت أماني تلك النظرة المتيبسة، فقد شاهدتها من قبل على وجه غنمة كانت على وشك الموت. بغشاوة الدمع على عينيها، ركضت لتملأ حوض الشرب لقطيعها.

وحين عادت، أشار سيدو إليها نحو الغرب.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«هاني محق فيما قاله بشأن الاحتلال.»

قالت أماني محاولة اصطناع البهجة على نحو ما تفعله أمها مع أبيها: «لقد رحلت احتلالات أخرى وبقينا.»

«وأنا صبي صغير كان لنا جيران يهود في الخليل، لكن هؤلاء المستوطنين مختلفون»، وهزّ رأسه بأسى، «في تلك الأيام كنا نمضي الصيف والربيع فقط في هذا الوادي، ونتصرف على عادات الأجداد، نخيم مثل البدو في مغارة قريبة من الحقول حتى الحصاد.»

خطرت في ذهن أماني تلك المغارة في التلة وراء مطبخ ستي، حيث يخزنون معداتهم ومؤونتهم من الشاي والسكر والطحين والمخلل والمربى وصفائح زيت الزيتون. لا بد وأن النوم في البرودة بين تلك الجدران الصخرية كان شيئًا رائعًا.

تابع سيدو: «كنت أكره العودة للمدينة في الخريف، وأردت أن أبقى هنا وأسرح بالغنم على هذه التلال. حين بلغت الخامسة عشرة، وفي الليلة التي سبقت عودتنا، قال لي أبي إنه سجلني في أفضل مدرسة خاصة في القاهرة، فقد كان يريدني أن أصبح تاجرًا. احتدم بيننا الجدال، وفي منتصف الليل أتيت بالأغنام إلى هنا.»

وأشار إلى الحرش.

«كيف أستطيع أن أتملص من خطة أبي؟ بكيت من اليأس. وفاجأني عواء ذئب علَيّ.»

تجمد ذهن أماني، فطوال هذه السنين حكى سيدو الكثير من الحكايات. لكن ليس هذه.

«قادني الذئب إلى درب نحو مرج مستتر، مكان سميته الفردوس.

عشت هناك مع الأغنام طوال الشتاء. وحين رجعت في الربيع هوى أبي على ركبتيه، غير مصدق أنني ما زلت حيًّا بعد أن تقبلوا العزاء في موتي. لكن دهشتهم لم تتوقف عند هذا الحد، بل إن قطيعهم لم يسبق له أن كان كبيرًا كما أصبح عليه. ولم يعد أبي للتدخل في مصيري أبدًا.»

ذئب؟ درب؟ مكان مستتر؟ ذهب ذهن أماني في كل الاتجاهات. سيدو كان يعني الجبال وراء سنام الجمل.

مئات آلاف الجلاميد كانت تتكوم على المنحدر فوق الحائط الاستنادي الحجري. مسحت أماني المنحدر ببصرها على نحو ما فعلته آلاف المرات من قبل.

«أين يا سيدو؟»

«لست أنا الذي سأريك إياه.»

«ولمَ لا؟»

«إنها أرض الذئب.»

واقشعر الجلد على ذراعي أماني. ما الذي يجعل سيدو يحمي أرض ذئب؟

«وهل سبق أن عدت إلى المكان؟»

«لا، ما احتجت لذلك.»

ونادت عليهما أصوات من كرم الزيتون، حيث كان أبوها وعمها هاني ينصبان المعدات في أعلى صف أشجار.

قال سيدو: «لقد بدأ القطاف. تعرفين أنه سيكون آخر قطاف لي. ساعديني لأذهب إليهما.»

أتى الأب بحمار، معلّق على أحد جانبيه دلاء مثل الأجراس، وساعد سيدو ليركب عليه.

ساق عمر الجرار عبر المدرجات يسحب وراءه مقطورة تحمل العائلة والطعام.

وسرحت أماني بالغنم إلى قمة الجبل لترعى. في مواسم قطاف الزيتون اعتاد سيدو أن يترك القطيع برعاية ساحم بضع ساعات ليشارك في القطاف. وأماني كانت تفعل أيضًا.

في الصف العلوي من كرم الزيتون، اعتلى الأب قلب الشجرة الأولى ليقطف الزيتون بيديه. وعلى مفرش بلاستيكي تحت الشجرة، جلس سيدو بجانب أخيه منذر، وهو رجلٌ ضخم الجسد، أكل ذات يوم ست فطائر بيتزا كاملة مسجلاً رقمًا قياسيًا، تعهد عمر بأن يحطمه هذا العام. أخذا ينقيان الزيتون من الأوراق ويضعان الزيتون النظيف في دلو بينهما، بينما طقطقات مقص الشِحالة (7) بيد العم هاني تقطع الهواء.

كانت أماني تمط جسدها إلى غصن لالتقاط الحبات المختبئة تحت أوراقه البعيدة، وعندما رأت شعر جدّها الأبيض تحتها مباشرة أوقعت عمدًا بضع حبات من بين أصابعها.

«آه!!» صاح سيدو وهو يفرك رأسه، «هناك قرد على الشجرة يا منذر. لو تقف وتطرده.»

صاحت أماني: «أنا أرسل إليك الحظ!»

همهم منذر: «الشيء الوحيد الذي سأقف لأجله هو الفطور.»

حينئذ نادى العم هاني ضاحكًا: «ومن وعدك بفطور؟ ليس لدينا ما يكفي.»

---

(7) الشحالة هي تقليم الأشجار بقص الأغصان القديمة التي أثمرت.

أكملوا قطاف الشجرة الأولى تمامًا قبل شروق الشمس.

لملموا أطراف المفرش البلاستيكي، فتدحرجت مئات حبات الزيتون السوداء نحو وسطه، ثم صبوها في قمع كبير فوق الدلو الذي ينتظرها.

بنات العم وأزواجهن أتوا جميعًا، باستثناء نهلة التي علقت في الخليل بسبب حظر التجول. ومدَّت النسوة مأدبة عامرة بجانب نار الحطب، حيث سلقت عليها الأم مزيدًا من البيض في القدر. ومن دلة فضية طويلة، صبت وردة القهوة في فناجين صغيرة للجميع. أما العمة فاطمة فانحنت فوق الحفيد الجديد الذي كانت تحتضنه بين ذراعيها.

كانت أماني تقطع من خبز تنور ستي الطازج، وتغمسه في زيت الزيتون أو البندورة الحمراء، قبل أن ترش الزعتر الأخضر الغامق والملح على كل لقمة.

وبدت أماني وسط عائلتها تحت شجرة الزيتون وهي تمضغ لقيماتها وكأنها تأكل إشراقة ذلك الصباح.

حين وصلت أماني بغنمها إلى الحظيرة وانتهت من حلب النعجات، وجدت سيدو يغط في النوم على المصطبة. وكان بعض الأقارب القلقين عليه يستقلون مقطورتهم في طريقهم إلى القرية. ساعدت الأم أماني بأخذ دلاء الحليب إلى مطبخ ستي وراء الدار. كانت ستي جالسة وحدها مقابل التنور وبيديها وعاء خشبي كبير تستخدمه للعجين.

قالت الأم: «سأذهب للدار لخبز بعض المعمول.»

ثم التفتت قائلة: «أماني؟»

كانت كل عضلة في جسد أماني تستجدي الراحة، «سأبقى مع ستي. أتريدين أن تخبزي يا ستي؟ هل أجلب بعض الطحين؟»

وقفت جدتها وأومأت موافقة.

«لهذا أتيت إلى هنا.»

أتت أماني بصفيحة من المغارة وعادت إلى ستي في المطبخ.

«طلع الصبح؟» سألت ستي وهي تقيس مكونات العجين وتضعها في الوعاء.

«لا، للتو نزل الليل.»

«اذهبي وأيقظي جدك النائم على المصطبة. ذاكرته تسوء، ألاحظت ذلك؟»

خلطت أماني بقوة فثار الطحين وغبَّرت كنزتها بالبياض. «إنه متعب. سأتركه نائمًا؟»

تمتمت ستي منزعجة: «إن لم يطلع الصبح، فلِمَ نخبز الآن؟»

«ما عندنا وقت غدًا؛ إنه موسم قطف الزيتون. ومنذر يزورنا. تتذكرين؟ إنه أخو سيدو.»

ضحكت ستي، في إشارة على أن ذاكرتها تتحرك، «ومن يمكنه أن ينسى منذر؟ إنه يأكل ما يكفي قرية، وهو معتاد على الشجار مع جدك، خصوصًا حول الذئاب، فمنذر يحب أن يصيدها. أتعرفين أن سيدو سمع عواء ذئب ليلة مولدك؟»

رَقَّقَت أماني العجين على رشة طحين خفيفة فوق الطاولة.

«أخبريني القصة، يا ستي.»

«ليلة ميلادك كان هناك حظر تجول؛ فلم نستطع أخذ أمك إلى المستشفى»، كانت الجدة تقص الحكاية وكأنها تغنيها: «قال لها سيدو أن تصعد الجبل؛ فالمشي لأعلى الجبل هي سنة الله لتسريع

الولادة. وهناك ولدتكِ. على الجبل، مثل جدّك، ومثل الغنم.»

كانت أيديهما تطير وهي تقطع وتكور العجين. كومَتا كرات العجين في الوعاء ثانية، ثم حملته أماني على رأسها وهو يضغط بثقله عظام جمجمتها. وفي الخارج، وضعته أمام تنور صغير مثل القبة، له سطح معدني مقبب مثبت بالإسمنت على حوائط قرميدية، يغطّيه الجمر الأحمر من تحته.

أطلقت أماني تنهيدة ارتياح وهي تجلس على كرسي أمامه.

«أسميناك أماني تيمّنًا بأمنياتنا. أشياء نودعها لدى آخر ليبقيها آمنة. أبواك تمنّيا أن تكبري في فلسطين حرّة. سيدو تمنى أن تحبي الله. وأخوك...»

«عمر»، ذكّرتها أماني باسمه، وهي تنتزع بحذر أول رغيف محمّر لئلاّ تحرق أصابعها.

وألقت ستي برقاقة عجين ثانية في المكان الفارغ.

«عمر! أرادك أن تكوني صبيًا.»

«وأنت يا ستي؟ ماذا تمنيتِ؟»

«أنا تمنيت حفيدة تحب أن تخبز على التنور مع جدتها العجوز.»

وانحنت ستي وقبلت خدّ أماني، «الله كريم.»

ما إن علا الخبز في الطبق حتى كانت العائلة قد عادت بالسمك المقلي. وعلى المِصطبة، سمى سيدو باسم الله ليلتهموا عشاءهم، الذي أنهوه بمعمول أم أماني المحشو بالجوز والتمر.

ثم مدّوا المراتب والبطانيات وناموا مرهقين تحت السماء المظلمة، وبقايا السكر الناعم ما تزال على شفاههم.

طوال الأيام الثلاثة التالية، واصلوا القطاف نزولاً على المدرجات واحدًا بعد الآخر، يتنقلون بين الأشجار المتباعدة في الصفوف، إلى أن أصبحت كل حبة زيتون في أحد الأكياس، وكل كيس مرتب في أحد الأكوام المنسقة على ظهر الشاحنة القديمة.

استلقت أماني على الأرض وكل حركة تسبب لها الألم، فيما يتناقش الرجال لاتخاذ القرار، أين يأخذون الزيتون لعصره.

رنّ هاتف الأب، كان الاتصال من المستشفى. أراد الأطباء أن يزورهم سيدو لإجراء بعض الاختبارات بعد رفع حظر التجول في الخليل لأربع وعشرين ساعة. فهل يستطيعون أخذ سيدو معهم؟

حذّرهم منذر: «السفرة بشعة.»

قال العم هاني: «يجب أن يذهب للمستشفى. ونحن يجب أن نأخذ الزيتون لمكان ما.»

أومأ سيدو موافقًا: «إن كان بمقدور الزيتون أن يصل، فأنا بمقدوري أن أصل.»

قال عمر: «أريد أن أذهب.»

وقالت أماني: «وأنا أيضًا»، وهي تقفز فرحًا بتلك العادة العائلية المبهجة، مثلما كانت تفعل وهي صغيرة.

وبدا أن الكبار وافقوا، خصوصًا الأم والعمة فاطمة.

قالت عمتها: «الله يحمينا. دعونا نذهب.»

هامت أماني ببصرها في الليل الحالك وهي تجلس على ظهر الشاحنة، وأخذت القرية تتراجع وراءهم. انعطف العم هاني بحدة لليسار؛ ليتفادى مطبات الحصار الإسرائيلي التي تقطع الطريق. ثم تحركت

الشاحنة ببطء على درب الجرار عبر الوادي، حيث المزيد من المنعطفات الحادة.

فوجئت أماني بأنهم أصبحوا على أرض ممهدة.

مطت أماني جسدها خارج الشاحنة لترى أين يسيرون، كانوا على الأساس الحصوي لطريق المستوطنين السريع الجديد.

وفجأة توقفت الشاحنة، وصفق البابان. ثم سمعت صوت خطوات الخطوات. في تلك السماء المظلمة يسهل انتقال الصوت.

وسمعت أماني عمها يقول، «إننا على أرض فلسطينية. إن بقينا على الطريق السريع، سنصل المدينة في عشر دقائق.»

وبدا صوت الأب متوترًا: «إن أمسك الإسرائيليون بنا فسيأخذون الشاحنة والزيتون ويرمون بنا في السجن. لا داعي لهذا.»

تكلم سيدو وهو ما زال مكوّمًا تحت البطانيات: «خذوا طريق جهنم. قد يعلّمكما أنتما الاثنان الدعاء لله. هذا سيجعل السفرة تستحق العناء.»

في البداية شعرت أماني بالارتياح؛ فقد تركوا طريق المستوطنين السريع، وتحول التهادي اللطيف إلى قفز شديد كلما نقل العم هاني مبدل السرعة. تمسكت أماني بقوة عندما بدأت الشاحنة الصعود على المنحدر جنوبي الوادي.

كانوا يسيرون على أرض قاسية، لا دروب فيها على الإطلاق. ارتطم الدولابان الأماميان بحفرة، ثم الخلفيان. وفي كل مرة كانت أماني ترتطم بالقضيب الخشبي، أما سيدو فكان يئن قليلاً كلما قفزت السيارة. ودعت أماني الله ألا تطول السفرة.

وصلوا قمة التلة. وعلى الطرف الآخر من الوادي ـ نحو الغرب ـ بدت لهم أنوار المستوطنة الزرقاء براقة تضيء الأسطح المبلطة بالبرتقالي والجدران البيضاء العالية بين قمم الأشجار الخضراء. ثم أخذوا يهبطون واختفت المستوطنة. أحصت أماني خمسة عشر مطبًا، ثم بدأت العد من جديد. زادت سرعة الشاحنة وهي تهبط، لكن المطبات أوصلت الألم حتى إلى أسنانها.

تواصلت السفرة، وعدَّت أماني ـ صعودًا ونزولاً ـ مزيدًا من التلال، إلى أن توقف التقافز بحمد الله.

تنهدوا جميعًا في ارتياح حين وصلوا طريقًا ممهدًا جدًا، حتى كادت أماني أن تقفز وتقبله.

تباطأت الشاحنة ثم توقفت، وسمعت أماني خارجًا أصوات صراخ بالعبرية.

همس عمر: «حاجز عسكري.»

أصوات خطوات ثم ظهر الجند على ظهر الشاحنة. الضوء القوي أجبر أماني على حجب عينيها. وحين استطاعت عيناها أن تنظرا رأت البنادق موجهة إليهم. انخلع قلبها خوفًا، ثم سمعت أباها يقول شيئًا بالعبرية قبل أن يتحول إلى العربية.

«نحن نأخذ والدنا إلى المستشفى لإجراء فحوصات.»

أنَّ سيدو متألمًا. وأداروا الضوء نحوه وهو مستلقٍ محشورًا بجانب كيس زيتون، بينما كانت الأم جاثية بجانبه وعيناها تحملقان في الضوء.

ثم تحول الضوء نحو عمر الذي كانت قبضته متشبثة بالقضيب

الخشبي، ولو كانت العيون تستطيع الهجوم لفعل عمر.

أتى الأمر بالعربية، «أنت! اطلع!»

أحاديث كثيرة سريعة بالعبرية فيما كان عمر يقفز من فوق القضيب.

أمسكه جنديان من ذراعيه واقتاداه بعيدًا. مضى قبل أن تتمكن أماني من مجرد التفكير فيما ينبغي أن تفعل.

صاح الأب: «لماذا تأخذون ابني؟ إلى أين؟»

واعترض جندي صدر أبيها ببندقيته وهو يتحدث بعربية مكسرة: «ما في صبيان فلسطينيين في المدينة. نطلق النار على الصبيان الفلسطينيين. سيبقى في الحاجز العسكري حتى ترجعوا لدياركم.»

«إذًا سأبقى معه.»

رفع الجندي كتفيه بلا اكتراث وأزاح بندقيته.

وغاب الأب والجنود أيضًا. حدث الأمر بسرعة.

«أمي؟ ماذا سنفعل الآن؟»

بدت الأم منهكة أكثر منها كونها خائفة فيما بدأت الشاحنة بالحركة، «سنأخذ سيدو إلى المستشفى، ثم نعود للحاجز العسكري في الصباح عسى أن نأخذهما.»

في المستشفى كان سيدو أكثر إرهاقًا من أن يستطيع المشي، فأحضرت ممرضة شابة كرسيًا بعجلات ووعدتهم بأن تعتني به فيما يذهبون هم إلى معصرة الزيتون. شيء ما في زيها الأبيض، وفي الطريقة التي لفت بها ملاءة بيضاء حول سيدو قبل أن تدخله على الكرسي إلى المبنى الكبير، أعطاهم الإحساس بالاطمئنان.

ساقوا سيارتهم في شوارع المدينة المزدحمة؛ فقد كان الناس خارج

بيوتهم يتسوقون استعداداً لحظر التجول التالي. تعجبت أماني من قدرة عمها هاني على إيجاد المبنى الذي لا يوجد ما يدل عليه. فجأة، كان أمامهم. مستطيل كبير من الضوء أمام البوابة المفتوحة على أرض الشارع المرصوفة بالحجر، وباب معدني مموج يستند تحت السقف فوق ضجيج الآلات. على الرصيف يسلّم الكبار كل واحد منهم على الآخرين وكأنهم عائلة واحدة. كانوا يتبادلون القصص والطعام فيما كانت الآلات تغسل وتهرس وتفرم زيتونهم مستخلصة الزيت الذهبي الذي يبيعونه أو يأخذونه إلى بيوتهم في براميل بلاستيكية كبيرة.

ساعدتهم أماني في إفراغ أكياس الزيتون وهي تفتقد أباها وأخاها عمر. كانا يحبان أخذ المحصول لمعصرة الزيتون.

فاجأها عمها هاني بوضع بعض الشيكلات في يدها.

«ابقي مع وردة، ولا تبتعدي. ربما يفرضون حظر التجول التالي في أي لحظة.»

ومضت ابنة عمها إلى مطعمها المفضل.

سألتها وردة على باب المطعم: «أتريدين تقطيع البيتزا؟ لو كان عمر هنا لحاول أن يحطم رقم منذر. كم واحدة تظنين أنه يستطيع أن يأكل؟»

أحست أماني برغبة في البكاء، وليس الأكل أو لعب الفوازير. هل عمر بخير؟

دسّت وردة ذراعها بين ذراعي أماني، «أنت قلقة من أن يؤذيه الجنود؟»

رفعت أماني كتفيها دون أن تجيب. لم يسبق لوردة أن كانت لطيفة معها.

قالت وردة وهي تشدها نحو أحد المحلات: «دعينا نتشارك بالمال ونشتري له شيئًا.»

كان من السهل الاتفاق على اختيار هدية لعمر، اشترتا له كيسًا ضخمًا من السكاكر التي يحبها: فول سوداني مغطى بطبقة مقرمشة حلوة.

حين عادت إلى المكان الذي تجتمع فيه العائلة، جلست أماني بجانب أمّها مستندة على الجدار، وأخذ هدير آلات المعصرة يهدهدها لتنام.

بدأ المؤذنون يرفعون أذان الفجر حين وصلوا لأخذ سيدو من المستشفى، ثم أبيها وعمر من الحاجز العسكري.

سألت الأم عمر وهي تعطيه بطانية من على ظهر الشاحنة: «طيب؟ كيف كانت ليلتك؟»

«سأقاتلهم مع أصدقائي، ولن تستطيعي منعي.»

وضعت أماني كيس السكاكر في يديه، آملة لو أن لديها هدية تبقيه سالمًا.

مكتبة الرمحي أحمد

[8]

بعد أسبوع من عصر الزيتون اتصل الطبيب. سيدو يعاني حالة متقدمة من سرطان الدم، وإن رفع حظر التجول ثانية يمكنه العودة إلى المستشفى. سيعيش بضعة أشهر أخرى في أفضل الأحوال.

قال سيدو ضاحكًا: «سفرة أخرى على طريق جهنم؟ أيريدون أن يقتلوني؟»

مدت ستي يدها لتمسك بيده: «ابق في البيت. لا تذهب إلى المستشفى.»

وتبادلا نظرة صامتة.

جرّوا أريكة قديمة وبطانيات إلى المصطبة. أراد سيدو أن يمضي أيامه الأخيرة وهو يشاهد مدرجات الزيتون والوادي. ومرة ثانية، غرقت العائلة بالزوار من القرية والطعام والأحاديث والنصائح. كان سيدو يأكل القليل ونادرًا ما يتكلم وكثيرًا ما ينام.

أماني أصبحت ترعى الغنم على السفح أعلى الدار ليستطيع سيدو أن يشاهدها. تلوح له من الطرف الآخر للوادي، ودائمًا ما يرد عليها ملوحًا. أمّا عمر فكثيرًا ما كان يجلس معه ليدرس كلّما أغلق الإسرائيليون المدرسة لأسباب أمنية.

في ليلته الأخيرة فتح سيدو عينيه ونظر بتمعن في كل فرد من أفراد

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

العائلة المجتمعين حوله.

«أين عصاي؟»

وأعطاه الأب إياها.

«جدي أعطاني هذه العصا، وأصبحت عادة في العائلة أن الصبي الذي يحملها يصبح راعي العائلة.»

صبي؟!. انخلع قلب أماني.

«العالم قد تغير. أعطِ العصا لأماني.»

لم تصدق أماني أذنيها. لا بد وأنها كانت تتخيّل أملاً بأن تسمع اسمها. نظرت إلى عمها هاني، منتظرة منه أن يأخذ العصا. وحدق فيها هاني وهو يلف ذراعيه حول صدره.

أخذ الأب العصا من سيدو وأعطاها لأماني. وحين ضغطت بيدها على طرفها الأملس المدور أحست بالخشب دافئًا ونابضًا بالحياة تحت أصابعها، وكانت تعرف ذلك.

لقد أعطاها سيدو عصاه.

دفنوا سيدو في مقبرة القرية، ووجهه يستقبل مكة.

كان سيدو مستعدًا لموته، أما أماني فلا. كانت دائمة التذكر له. وطوال شهر ظلت أمها تحضر لها أكلاتها المحببة وكأنها مريضة، لكنها لم تكن تأكل إلاّ قليلاً جدًا من محشي الفليفلة والباذنجان المشوي. خبزت لها العمة فاطمة كعكة بالتين وحملتها عبر الوادي، لكن أماني لم تتمكن من أكل ولو قطعة واحدة. اشترى لها والدها كتابًا جديدًا فكانت تقلب أوراقه متظاهرة بأنها تقرأ.

عمر وحده هو الذي تمكن أن يحظى منها بابتسامة، ابتسامة

حقيقية، حينما عرض عليها أن يرسل رسالة إلكترونية إلى البيطري من حاسوب الآنسة عبوشي.

تطلب الأمر الليلة بطولها لتأليف ثلاث كلمات.

«رومانيا أصبحت حبلى.»

كلما تناولوا عشاءهم على مصطبة سيدو وجدت أماني نفسها مرغمةً على سماع شجارات أبيها وعمها هاني. لم يتم بيع محصول العنب في الخريف لأنهم لم يتمكنوا من نقله لأي مكان، وبقي المحصول معلقًا حتى تعفن على عرائشه. نصب الإسرائيليون مزيدًا من الحواجز العسكرية وفرضوا فيها أذونات عبور جديدة عالية التكلفة. أصبح التنقل عبر طريق جهنم صعبًا على الشاحنة؛ فقد كانت بحاجة لإطارات جديدة وقطع غيار.

أحست أماني بالصدمة حين علمت بشدة حاجتهم للمال.

في يوم جمعة أوائل مارس، تحوّل الطقس ليكون أقرب إلى الربيعي. طوال الشتاء كانت تسرح بالغنم أسفل الوادي أو أعلى السفوح الجنوبية لتريح قمة جبل سيدو. يومها ساقت أماني قطيعها للمرة الأولى منذ شهور في الدرب الصاعد ليرعى على القمة وحتى حافتها الشمالية.

في الوادي أسفلها، شاهدت أماني سيارة مسرعة على طريق المستوطنين السريع، استغربت. ما الذي حدث في الوادي الشمالي؟ حين نظرت غربًا شاهدت مجموعة من المباني الجديدة تحتل الحافة عند الأفق.

وعندما عادت لتفقُّد القطيع، رأت رومانيا وهي تقوس ظهرها غير بعيد عنها، وانسل حمل إلى الأرض وراءها، وبدأت رومانيا تلعقه ليتحرك.

مشاهدة نعجتها المفضلة وهي تلد أعاد أماني إلى عالم لا تشعر بالغربة عنه.

قالت أماني وهي تجثو على الأرض بجانبهما: «لو كان سيدو هنا لقال إنك أم رائعة.»

غير أن رومانيا غيرت من وقفتها وبدأت بالدفع ثانية، وسرعان ما كان التوأم يستلقي بجانب أخيه. لعقت رومانيا رأسه حتى تحرك، ثم حولت انتباهها نحو المولود الأول.

كانت أماني تعرف أن النعاج غالبًا ما تلعق أحد المولودين لتجففه قبل أن تعيد ذلك مع الآخر. لكن رومانيا عادت وتقوست مرة أخرى. شيء صغير انسل منها. حدقت أماني في تلك المفاجأة الصغيرة على الأرض. وتطلب الأمر بضع ثوانٍ قبل أن تدرك أنه حمل ثالث، ضئيل وبلا حراك، مغطى بالمشيمة.

كانت رومانيا منشغلة بمولودها الأول. وتعين على غريزة الراعي في أماني أن تبدأ بالمساعدة قبل أن يختنق الحمل الثالث. نزعت أماني الغشاء من على رأس الحمل، ونظفت المخاط من أنفه وفمه، فسعل الوليد وانتفض. كان أسود صافيًا وجميلاً.

قالت أماني: «سأسميك المفاجأة. سأحتفظ بك. مهما كان الثمن.»

مع بداية موسم الولادات زار عمها هاني الحظيرة. وحين شاهدته عند الباب تعثرت بدلو الحليب الذي أريق على الأرض؛ فقد كانت نظرته إلى الخراف تعبر عن غرضه.

عدلت أماني دلو الحليب ويداها ترتعشان. كان سيدو دومًا هو الذي يختار الرأس الذي يراد بيعه أو ذبحه.

أسندت رأسها على صوف النعجة. ربما يتركها العم هاني وشأنها. لا. بالتأكيد لن يفعل. لا يمكنه أن يتركها وشأنها دون أن يكون عند العائلة ما تأكله أو طريقة للحصول على المال. كرهت أن تعترف بالأمر، لكن الحقيقة هي أن عمها يستطيع أن يفتح الباب ويأخذ رأسًا دون أن يقول كلمة. في المقابل، كان يعطيها الفرصة لأن تكون راعية.

وسمعت صوت سيدو يتحدث داخلها: الراعي يعيل العائلة.

غريزتها كانت هي التي تقودها. خلال الشتاء، دون أن تحصل العائلة على المال من بيع محصول العنب، وافق سيدو على أن يبيع الرؤوس الهرمة والكباش غير اللازمة وحتى بعض النعجات. وتقلص عدد القطيع إلى أربعين رأسًا فقط. أما العنيد والنعجات القوية فكانت مهمة لبقاء القطيع.

تركت أماني حظيرة الحلب وأخذت خروفًا فتيًا، حملته ومشت به في الحظيرة، ورفعته فوق البوابة إلى ذراعي عمها المنتظرتين.

لم يقل عمها هاني أي كلمة، ولكن مسحة جديدة كانت بادية في نظرته. الاحترام. أدارت أماني ظهرها له لتخفي الدموع على خديها.

أصبح يأتي كثيرًا. أعطته أماني كل خروف لديها باستثناء المفاجأة، ثم النعاج الأضعف. مرة وجدت كيس علف متروكًا عند باب الحظيرة، لكنها لم تشكر عمّها.

على مدى العام التالي ازدادت حاجة العائلة للمال. تراجع عدد القطيع إلى ثلاثين ثم عشرين. وعندما أصبحت مضطرة للاختيار احتفظت أماني فقط بالإناث من نسل رومانيا.

ظهر المسّاحون والجنود الإسرائيليون في كرم العنب. كانوا يضعون

علامات تحدد مسار الجزء التالي من طريقهم السريع.

قال لها عمها: «لا تسرحي بالأغنام أسفل الوادي بعد الآن، وخصوصًا شرق كرم العنب، فلم يعد المكان آمنًا عليك وأنت وحدك. حين يأتي موسم الولادات سأبيع معظم الخراف.»

وكان العم هاني رجلاً عند كلمته، فلم يُبْقِ لها سوى قطيع من عشرة رؤوس.

وفي أحد صباحات يونيو، قبل أسبوع واحد من عيد ميلادها الخامس عشر، وقف عمها هاني عند الباب مع أبي نادر، زوج «إصلاح»، الأخت الصغرى لفاطمة. وهما يعيشان في القرية ويحتفظان بقطيع صغير من أجل احتياجات العائلة.

قال بنبرة اعتذار: «أبو نادر يريد كبشًا جديدًا. ونحن نحتاج المال لنشتري إطارات جديدة للشاحنة.»

لم يتبقَ لدى أماني سوى كبشين: العنيد والمفاجأة. لكن المفاجأة كان وثيق القرابة من النعجات الصغيرات اللواتي استبقتهن في قطيعها.

وبعصا سيدو ساقت المفاجأة إلى الباب. وساقا الكبش الأسود بعيدًا وقلبها يعتصر ألمًا.

[9]

كان الماء قليلاً.

مع تضاؤل حجم القطيع أصبح حوض الشرب أطول من الحاجة ومضيعة للماء. في الربيع أعاد العم هاني بناءه، فأصبح أكثر حفظًا للماء، ولكنه صغيرٌ جدًا.

الأغنام الأكبر هي التي تشرب أولاً، وتبعد خروفًا أو اثنين يبحثان دون جدوى عن مكان للشرب. وأصبحت أماني مضطرة لملء الحوض مرتين، واستخدام عصاها لإبعاد العنيد وإفساح مكان لخروف عطشان. وواصلت عادة جدها بغسل يدها اليمنى ثم اليسرى قبل البسملة، بسم الله الرحمن الرحيم.

على الدرب الصاعد المنحدر نحو قمة سيدو، كانت الوجه الأسود تتقدم ببطء، ضرعها وردي ومنتفخ. إذ رغم حرص أماني طوال الخريف على منع هذه الأنثى الصغيرة من الحمل، اقتحم العنيد حظيرتها في يناير، ومن ثم حرصت أماني على الانتباه في رعاية هذه الأم الصغيرة.

على القمة توجهت الوجه الأسود إلى الوادي الصخري الضيق بين قمة سيدو وسنام الجمل، غير أن ساحم أعادها إلى القطيع.

في الغرب شدت انتباه أماني غيمة غبار غير معتادة وراء القرية، وبدت

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

لها آليات صفراء وهي تتحرك داخل وخارج الغيمة.
الجرافات الإسرائيلية تهاجم الوادي.
ملأت صرخة احتجاج حنجرتها وهي تصيح بأعلى صوتها: «لا!»
تخيلت أن كل من في الوادي يراقب أيضًا ما يحدث كارهًا ذلك المشهد، وأن موجة غضب ترتفع من الوادي لتغمرها.
استدارت وتوجهت نحو قمة سيدو على الجانب الشمالي. رأت تحتها سيارة إسرائيلية تعبر مسرعة بين الحين والآخر، وجرافة صفراء متوقفة على جانب طريقهم السريع من ناحيتها. تلك كانت جديدة في المكان. لمَ تقف هناك؟
على الجانب الآخر، بل أبعد قليلاً نحو الغرب، يقود مخرج من الطريق السريع إلى مستوطنة جديدة على الحافة البعيدة. بدت المستوطنة سديمًا أخضر. سمعت أن لديهم مسبحًا.
تفقدت أماني القطيع.
ثمانية! الوجه الأسود غير موجودة!
أين؟
الصدع (8) ركضت أماني نحوه وهي تفكر بسرعة. الولادة قد تكون طويلة وعسيرة. أمرت ساحم أن ينزل بالقطيع إلى الحرش.
قعر الصدع يغمره الظل، وترتفع فوقه قمة سنام الجمل وكأنها برج ذهبي تحت شمس العصر.
انتظرت أماني، وأصاخت السمع.
أنين قوي إلى يمينها.

---

(8) الصدع هو وادٍ ضيق وعميق في الجبال.

«أين أنت؟» نادت، وهي تتسلق الصخور. رأت أولاً رأس الوجه الأسود ثم باقي جسد النعجة. كانت مستلقية على جانبها بين صخرتين.

«الوجه الأسود، لا بأس عليك»، قالت لها مُطَمئِنةً، «أنا آتية.»

أحد ظِلْفي (9) المولود الأماميين كان قد ظهر بالفعل، فتنهدت أماني تنهيدة ارتياح؛ لأنها ليست ولادة مقعدية (10) ومدت يدها بلطف لتجد الظلف الآخر.

«ادفعي الآن. أنت أم طيبة. بمقدورك فعل ذلك.»

لكن الأنف لم يظهر. الوجه الأسود كانت صغيرة، وربما يكون رأس المولود كبيرًا جدًا بحيث يصعب أن يخرج بسهولة. دعت أماني الله ألا يكون الوليد قد مات خشية أن يتورم رأسه داخل القناة نتيجة الموت قبل الولادة.

قالت وهي تبقي على هدوء صوتها: «ادفعي بقوة.»

«هذه المرة!» قالت وهي تسحب بقوة. وظهر أنف ورأس أسود، وأذنان ضخمتان ملتصقتان عليه نحو الخلف، ثم تبعهما باقي جسمه المغطى بالكيس الدبق. التقلص الأخير أخرج المزيد من السائل والمشيمة السوداء. وقامت الوجه الأسود لتتحرك في المكان وبدأت بلعق الوليد.

ضحكت أماني حين بدأ الحمل الصغير بالحركة.

«إنها مولودة جميلة أيتها الوجه الأسود. سوى أن لها رأسًا عملاقًا.»

لم يكن من السهل على المولودة وأمها الوقوف في المكان الضيق بين الصخور.

---

(9) الظلف هو الحافر ويختلف الظلف عن الحافر في أنه يكون مشقوقًا كما في الغنم والأبقار.

(10) الولادة المقعدية هي التي تكون فيها مقعدة الوليد متجهة أولاً نحو فتحة الولادة بخلاف الولادة الطبيعية التي يتوجه فيها الوليد برأسه.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

قالت أماني موبخة: «لو كان عمر هنا لقال بأن هذا أغبى اختيار لمكان الولادة، بل هو مكان جيد لتكسري ساقك.»

حملت أماني المولودة ثم الوجه الأسود إلى حيث يمكنهما متابعة التسلق خارج الصدع بسهولة أكثر.

فجأة، ودون مقدمات، سرى في أماني شعور يسبب التوتر بأن هناك من يراقبها. سرت القشعريرة في جسدها واشرأب الشعر على رقبتها. ثم سمعت نباحًا لم يسبق أن سمعت مثله من كلب في القرية. استدارت منتفضة، لم تر شيئًا يتحرك في الصدع. جالت بعينيها على سفح سنام الجمل. نسمة خفيفة هفهفت من الخلف على ساقيها. أيًّا كان هذا الذي يراقبها فهو هناك، يَشْتَمُّها.

تجمدت في مكانها.

حيوان من ذوات الأربع يقف مقابلها، لون جسده جعل من الصعب رؤيته على سنام الجمل، كان مثل كلب ضخم.

لا، ليس كلبًا. لقد شاهدت فيلمًا.

كان ذئبًا؛ فقد كان رأسه ـ وخصوصًا أذنيه ـ كبيرًا، قياسًا بجسده المشوق.

شعره الطويل شاحب، ويصبح قصيرًا أسفل بطنه. تُوَشي خصلٌ سوداء شعر صدره السميك وحول رأسه.

عيناه تحدقان بها بثبات. أرادت أماني أن تركض، غير أن قدميها كانتا راسختين في الأرض حيث هما. حاولت أن تستذكر كل ما سبق أن قرأته أو سمعته. للذئب فَكّان قادران على قطع ساق غنمة بدقيقة. وهو سريع وماكر ويتسلل وراء فريسته.

ماذا يريد؟ هي؟ الوجه الأسود؟ الحمل الوليد؟ لمَ كان يقف مكانه على ذلك النحو؟ هل ترافقه عصبة يحومون حولها في مكان ما؟ أذناه كانتا مشرئبتين، وذيله أيضًا كان متوثبًا، لكن ليس عدائيًا.

ما الذي قاله لها سيدو عن الذئاب؟ كان ذلك منذ وقت طويل. لم تتمكن من التذكر!

فجأة خطرت لها فكرة مجنونة. أعطِهِ شيئًا. تحتها، كانت المشيمة ما تزال ملقاة على الأرض مثل قطعة لحم نيء. التقطتها وبدأت تلوح له بها وهي تخرجها من الصدع.

قالت بصوت عالٍ، للوجه الأسود وللذئب: «نحن ذاهبون إلى الدار.» وأدلت له المشيمة بيدها.

صرخت: «هذا أكلٌ طيب. أطيب من غنماتي. سأعطيه لك.» ورمت بها نحو الصدع.

عوى الذئب، ثم استقام ذيله وقفز نازلاً السفح.

أمسكت أماني بالحمل وركضت نحو الدرب، والوجه الأسود على إثرها. وفيما هي تسرع على الدرب الهابط المتعرج بحركة تكاد تشبه الانزلاق، كانت لا تكف عن النظر وراءها لترى إن كان الذئب سريعًا بالقدر الذي تخشاه.

حين بلغت الصف الأول من الأشجار عند نهاية الحرش، جالت بعينيها سريعًا على الدرب وللأعلى نحو سنام الجمل، وهو ما جعلها تشعر بالارتياح.

لم يكن هناك ذئب يلاحقها.

لم تجرؤ على ترك الأغنام على راحتها. ورغم الألم في كتفيها، أسرعت بالنزول عبر المدرجات. الآن أصبحت تواجه مشكلة أخرى.

ما الذي ستقوله لعمها وأبيها؟ ينبغي عليها أن تخبر عائلتها بأي خطر.

ولكنها تعرف أنها إن أخبرتهم برؤية ذئب على قمة سيدو فإن أيامها في رعي الغنم ستكون قد انتهت لأسباب وجيهة.

[10]

باكرًا، صباح اليوم التالي أتت أماني بالوجه الأسود إلى الحظيرة لتراقبها وهي تحلب رومانيا.

«بعد الفطور سآخذك لتسرحي طوال اليوم. قريبًا سيكون حليبك أكثر، وصغيرك سيكبر ويقوى، حتى أنك لن تعرفيه في الخريف.»

حملت أماني دلو الحليب المملوء حتى نصفه إلى باب المطبخ. العمة فاطمة والأم ستصنعان منه الجبن واللبن لاحقًا. أما ستي فكانت في الداخل تعجن على طبلية صغيرة.

«كيف حالك يا ستي؟ أليس يومًا رائعًا!»

«لا مدرسة اليوم؟» رد صوت ستي بنبرة حيرة.

«هذه أنا، أماني. راح ذهنك لوردة. لقد ذهبت للمدرسة مع عمر. عنده امتحان اليوم. حلبت الأغنام وأتيت لمساعدتك في الخبز مثلما نفعل كل صباح. تتذكرين؟»

فركت ستي يدها على جلد وجهها المترهل.

«إيه. ذاكرتي. ما الذي حل بي؟»

ذاكرة ستي أصبحت تتبخر مثل الماء المسفوح على الأرض تحت شمس الصيف الحارة. ثوبها الأسود كان الشيء الوحيد الذي ما يزال يذكرها

بأن سيدو قد مات. الأحداث البعيدة تبدو وكأنها غائرة بعمق في ذهنها. وأملت أماني بأن أحدها سيطفو على السطح هذا الصباح.

كرات العجين تسابقت بين أيديهما. وحملت أماني الوعاء الثقيل على رأسها ووضعته على الأرض بين كرسيّين ينتظرانهما.

«هل سبق ورأيت ذئبًا يا ستي؟»

تجهم وجه ستي وهي تقول: «كان ذلك يومًا حتى أنا لا أستطيع أن أنساه.»

ورقَّقَت ستي كرة عجين ورمت بها على الصاج فوق التنور.

«أنا وجدك أبناء عمومة. كان أبواي كثيرًا ما يأتيان من المدينة إلى هنا للتنزه أمام المغارة. وكنت معه في اليوم الذي دخل فيه ذئب إلى قُنِّ الدجاج.»

يدا ستي متيبستان وبطيئتان، فخففت أماني سرعة يديها لتناسب سرعتهما. وكلما احمرَّ رغيف تنزعه أماني لتقلبه على الوجه الآخر.

«يا لها من جَلبة! الدجاج يحاول الهرب. واحدة كانت ميتة عند قدم الذئب. كنت متأكدة من أنه سيهجم لكنه ظل واقفًا هناك، يحملق في جدك. كانت له عينان برتقاليتان. طلب منه جدك أن يرحل وألاّ يعود. عوى الذئب لكنه أخذ الدجاجة بفمه وهرب. إخوة سيدو كانوا عازمين على قتله، لكن سيدو منعهم. قال لهم: «إنه لن يزعجنا مرة أخرى.» ولم يفعل.»

بقطعة خبز دافئة في جيبها وبرتقالة في جيب آخر، دخلت أماني إلى حديقة ورد عمتها. هل أمر سيدو بالفعل ذئبًا أن يرحل؟! لا. ستي كانت تبالغ. مع ذلك ألهبت القصة خيالها. لا يمكن لذئب أن يمنعها من الذهاب لقمة سيدو.

سلك وقطع من الصفيح تمتد من شجرتي تين إلى كرم الزيتون لتكون سياجًا للغنم. ساحم كان مستلقيًا باسترخاء تحت شمس الصباح قرب شجرة تين أخرى. لم يكن حجمه أكبر كثيرًا من حمل حديث الولادة إلّا أن الأغنام كانت تطيعه وكأن حجمه يكبرها بمرتين. اشرأبت أذناه عند مجيء أماني.

قالت وهي تفتح الباب: «إلى قمة سيدو!»

اندفع العنيد أولاً، تتبعه النعجات وأربعة حملان وهي تحاول مسايرته. وساقها ساحم إلى كرم الزيتون.

أوقفت أماني الوجه الأسود وفركت رأسها وراء أذنيها.

«تذكري الذئب، وأبقِ وليدتك الجديدة قريبةً منك. لقد سميتها الناجية.»

في الحرش توقفوا لاستراحة شرب طويلة قبل متابعة الصعود على السفح. ووصلت الأغنام القمة لتبدأ الرعي.

تمشّت أماني ببطء جيئة وذهابًا عبر القمة، وهي تفتش الأرض الجافة المنبسطة. لا شيء. تفقدت غنمها مرارًا. ربما عشر مرات.

وحين وصلت إلى الحافة الشمالية توقفت خائفةً. كانت الجرّافة الصفراء في الوادي الشمالي منهمكة في العمل، وعدّة سيارات متوقفة على جانب الطريق. بدا الأمر وكأنه بداية العمل في مخرج جديد.

لماذا؟ محطة وقود؟ متجر؟ حاجز عسكري؟

أصابها هذا المشهد بالشلل، وجف ريقها. كانوا على الجانب الذي في جهتها من الطريق السريع. لماذا ليسوا على الجانب الآخر؟

بانزعاج، أجبرت نفسها على الالتفات ومتابعة التفتيش، حتى وصلت إلى الصدع.

اختفت المشيمة.

وعثرت أماني على ما كانت تبحث عنه بين بعض الصخور. براز الذئب، صغير على نحو ملحوظ. لقد استهلك جسمه الحيوان الذي افترسه تمامًا، لم يبقَ منه سوى قطع صغيرة من العظم والفرو.

تفحصت أماني كل صخرة في الصدع، كل حفرة وكل مكان ظليل، وحول سنام الجمل، لإثارة جرأة الذئب كي يظهر.

انتظرت وقتًا طويلاً. لكن شيئًا لم يتحرك.

[11]

في وقت متأخر من عصر أحد أيام أغسطس، نبح ساحم وهو يركض عبر قمة سيدو نحو القمة الجنوبية الشرقية؛ فقد رأى أحدًا ما مقبلاً على الدرب.

عمر.

لوحت أماني بيدها، وبقيت جالسة حيث هي قريبًا من السفح الشمالي. هل سئم من الآلات الإسرائيلية في كرم عنبهم؟ أم أنه يحمل لها أخبارًا سعيدة؟ كان ينتظر صدور نتائج شهادة الثانوية العامة، ويقفز في كل مرة يرن فيها هاتف أبيه.

شيء صعب أن تنتظر ما تريده، أكثر من أي شيء آخر في الحياة.

قال: «فكرت أنك ربما تكونين بحاجة إلى حوار ذكي.»

«عندي غنماتي لأفعل ذلك. الطعام سيكون شيئًا طيبًا.»

ودسّ يده في جيبه وقدم لها بضع تينات، «كيف عرفت؟»

«هل تجاوزوا دارنا؟»

أومأ لها برأسه موافقًا، ومتجنبًا النظر في عينيها.

كانت الجرافات تحفر في حقولهم. أمّا أماني فقد سرّها أنها ابتعدت عن الضجيج والدوالي المتقصفة والعرائش المتهاوية، والجرافات التي

تلقي بقلب كرومهم في الشاحنات.

«هل شاهدتهم؟»

ألقى عمر تينة في فمه. من وجهه المكدّر عرفت أماني أنه قد فعل، وأنه ناقم على الجنود الإسرائيليين والعمال وطريقة تنفيذهم لما يريدون. أماني تفهم ذلك.

قالت: «لقد قرأت الكتاب الذي أعطيتني إياه.» كان عمر أعطاها كتاب تاريخ عن النكبة. ستمئة ألف فلسطيني تركوا ديارهم في حرب 1948. وبدلاً من العودة خلال بضعة أسابيع، أصبحوا لاجئين.

وصفع جبينه بكفه: «نسيت أن أعيده. إن ذهبتِ إلى المدرسة فأعيديه للآنسة عبوشي.»

«ولمَ أذهب إلى المدرسة؟»

«حتى لا تنطقي اللغة الإنجليزية مثل أبي. ستحبين الآنسة عبوشي. العام المقبل ستعلم الصف الذي من عمرك...»

اتسعت عيناه فزعًا وهو يحملق من فوق كتفها. استدارت لتَرى ما الذي أفزعه.

جرافتان "كاتربلر" صفراوان كانتا متوقفتين أسفل السفح الشمالي الذي يصعد نحو قمة سيدو. فقد انتهى عملهما في ذلك اليوم بعد أن مهدتا دربًا عريضًا من الطريق السريع إلى حيث هما أسفل جبل سيدو.

ضيّق عمر عينيه وهو ينظر إليها بارتياب.

«متى بدأ ذلك؟»

«منذ شهر، أو ربما شهرين. لم يعملوا في يوليو.»

«ولماذا لم تقولي شيئًا؟»

نبرة صوته غارت عميقًا في نفسها، فردت عليه غاضبة: «ظننت أنهم يبنون محطة وقود...»

قالتها بصوت عالٍ، ولكن عذرها بدا واهيًا.

رمى عمر بحجر إلى الأسفل على السفح: «ها هم يبنون طريقًا جديدًا. إنهم قادمون إلى هنا.»

عند العشاء كان المزاج سوداويًا على المصطبة. سمى العم هاني باسم الله وبدؤوا يأكلون. إلى الأسفل من المصطبة كان شريط طويل من الأرض المجرفة يمر عبر الكرم مثل جرحٍ مفتوح.

اختار عمر كلماته بعناية.

«كنت على القمة اليوم مع أماني، ورأينا جرافات أسفل السفح الشمالي. بدا لي وكأنهم ينوون شق طريق جديد يصعد إلى الجانب الشمالي.»

كرر عمها: «طريق إلى قمة سيدو... على الجانب الشمالي؟»

شعرت أماني بالدوار. هل سيسألها السؤال نفسه الذي سأله عمر؟ لم يفعل؛ فقد كانت لديه بواعث قلق أكبر.

«ماذا يريدون؟ هل ينوون وصل الواديين؟»

«ليس من فوق قمة سيدو»، أتى جواب الوالد سريعًا، «الانحدار على الجانب الشمالي فوق الحرش شديد جدًا.»

أومأ العم هاني موافقًا: «ما لم يكونوا آتين إلى مياهنا.»

هزت العمة فاطمة رأسها: «وكيف يمكنهم أن يعرفوا بأمر النبع؟»

قال عمر: «بأنظمة المراقبة والأقمار الصناعية. إنهم يرسمون خرائط لكل تفاصيل حياتنا.»

برد طعام العشاء في أطباقهم. حثتهم ستي على الأكل. لقد ذبحوا دجاجة ذاك الصباح وطبخت منها العمة فاطمة يخنة بالعدس والبصل. شاهدت أماني عمها هاني وهو يبدأ الأكل. كان هادئًا جدًا.

فجأة حملق في أبيها ثم في عمر.

«أقول أن نخرج الليلة وندمر جرافة.»

غصّت أماني بلقمتها.

سأل الأب: «بماذا؟ بالمتفجرات؟»

«لمرة واحدة، ها أنت تقول فكرة جيدة.» وخفض عمها هاني كفه اليمنى ليصفق بها كفه اليسرى.

حملقت أماني في عمر. واصل أكله ومحياه خالٍ من أي تعابير. بينما ظلت الأم تراقب، وهي متوترة وعابسة. كانت تتأهب إما للمقاطعة أو الذهاب للدار.

قال الأب: «العنف ليس هو الحل.»

«قل ذلك للإسرائيليين، فهم الذين بدأوا. إنهم يعاقبوننا، ونحن سنعاقبهم.»

«فكر بالأمر يا هاني. لديهم مليارات الدولارات الأمريكية التي تدعمهم. تنسف جرافة الليلة، فيجلبون عشرة مكانها غدًا. والأسوأ أنهم سيأتون بالجنود والدبابات. موسادهم سيدق بابنا، يرمينا بالرصاص أو في السجن، يدمر دورنا وقريتنا أيضًا. هل يفيد ذلك أحدًا؟»

لم يمد أحد يده إلى الطعام. أماني تعرف أن الأمر جدي؛ فقد شاهدته مرارًا في الأخبار.

متوسلاً، قال الأب: «لو أنك قرأت ذلك الكتاب عن غاندي..»

«هذه فلسطين! ليست الهند!» رد العم هاني مزمجرًا: «هم لا يريدوننا إلاّ من أجل أن نحفر خنادقهم أو نبني مسابحهم مقابل بضع شيكلات تافهة، وقد مضت تلك الأيام. أمّا الآن فهم يريدون أرضنا ومياهنا. يريدون طردنا، قرية بعد قرية. من حق أي إنسان أن يدافع عن نفسه فوق أرضه.»

لم ترق لأماني فكرة نسف الجرافات. لكنها وهي تستمع لعمها، وافقت. إن لهم الحق في أن يدافعوا عن ديارهم. أرادت أن تدافع عن قمة سيدو.

لو كان سيدو بينهم، تُرى؟! ماذا كان سيقول؟

رن هاتف الوالد. وتكررت الضربات الافتتاحية في موسيقى ليلة صغيرة لموازار عدة مرات قبل أن يسحب هاتفه الفضي الصغير من قميص جيبه. حملق في الشاشة وضغط زرًا ثم وضع الهاتف على أذنه.

«هيلو»، قال أبوها بصوت مرتفع بالإنجليزية.

بدأت وردة وأمها رفع الطعام الذي لم يتمكن أحد من أكله.

انتظار طويل.. «نعم، آنسة عبوشي.»

وتوقدت عينا عمر.

«إنه يجلس هنا بجانبي»، كان الأب يحب التحدث بالإنجليزية مع الآنسة عبوشي.

«لا. إنه لا يأكل. يبدو نحيلاً جدًا. سأخبره.»

انتظار آخر.

«أشكرك. سيكلمك لاحقًا حين يقرر ما الذي سيفعله.»

وضغط الأب زرًا وأعاد الهاتف إلى جيبه. قطع من رغيفه وغمس

الخبزة في آخر ما تبقى أمامه من يخنة الدجاج.

«لمَ لا تستطيع تلك المرأة التحدث بالعربية؟» سأل العم هاني متذمرًا.

حاولت أماني منع ابتسامتها. لقد فهمت تمامًا ما لم يتمكن عمها هاني من فهمه.

«هي تعرف أني أحب التمرن على الإنجليزية.»

«وماذا قالت تلك الأمريكية؟»

«ولمَ تسميها أمريكية؟» قال عمر، «لقد تربت هناك، هذا كل ما في الأمر. أنت تنتقد أولئك الذين يرحلون مثل الجبناء، أما هي فعادت مع والديها وهذا ما يثبت العكس. أبي، ماذا قالت؟»

وغمس الأب خبزة في يخنة الكوسا التي قطفوها من حديقة الأم. كان الوحيد الذي يأكل.

«كُلْ»، قال الأب هامسًا، «ربما تكون هذه آخر مرة تأكل من طبيخ الدار لوقت طويل. يريدون أن يقابلوك في رام الله الأسبوع المقبل. لقد فزت بمنحة دراسية في جامعة بيرزيت.»

قفز عمر وهو يطير من الفرحة، وقفز معه قلب أماني؛ فها هو حلمه يتحقق.

«لِم يرقص هكذا؟» سألتهم ستي، «هل سيتزوج؟»

أخذوا يصفقون، وعمر يدور حولهم راقصًا وهو يضحك، حتى عاد إلى مكانه وحضن أمه.

بقيت يدا العم هاني ساكنتين في حضنه، «أنا لم أسمح له بالذهاب بعد.» وفتح الأب فمه.

«من الأفضل له ألا يذهب إلى جامعة بيرزيت. رام الله حافلة بالتفكير

العصري، فالبنات هناك لا يتحجبن ولا يسترن أذرعهن. ما كان سيدو سيسمح له بالذهاب إلى رام الله. لن يكون مسلمًا تقيًا هناك.»

كادت أماني أن تصرخ: «طاغية! يفرض أحكامه على الجميع.»

انفجر الأب قبل أماني.

«ماذا دهاك؟ لو كان أبونا حيًا يرزق لكان سعيدًا من أجل عمر. ألا يكفينا الإسرائيليون الذين يسرقون أرضنا وماءنا؟! لِمَ نسمح لهم بأن يسرقوا أحلام أولادنا؟»

كانت ملامح وجه العم هاني متصلبة: «كنا محظوظين طوال تلك السنين، غير أن الاحتلال يهدد وادينا الآن. يجب أن يبقى في الدار، ويمكنه أن يدرس بكل سهولة في جامعة الخليل.»

هام أبوها بعينيه في الوادي الذي أخفاه الغروب. كتفاه المنحنيتان إلى الأسفل ذكرتا أماني بسيدو.

«أعلم أنك تشعر بالمسؤولية عن حماية أرضنا. إن أردنا أن نبقى فعلينا أن نتكيف مع التغيير. تذكر حينما بنينا أول بيت زجاجي للبندورة. كل القرية ضحكت علينا. اليوم كل واحد في القرية عنده بيت زجاجي. الأفكار الجديدة تساعدنا على البقاء. الجيل المقبل ربما يجد حلاً. دعه يذهب ويجده يا هاني.»

زفر العم هـاني زفـرة قوية، وكأنه حصان أرهقه حمل ثقيل: «نحتاجه هنا.»

«ربما سيعود.»

التمعت عينا العم هاني وهو يقول: «هو الصبي الوحيد بين أولادنا.»

كان حب العم هاني لعمر واضحًا في عينيه. فاجأ أماني؛ لأنها لم يسبق

أن شاهدته.

وفي لمح البصر عادت النظرة القاسية السابقة، حتى تساءلت أماني إن كان ما رأته خيالاً فحسب.

«اذهب إن أردت، شرط أن تعود في موسم الزيتون. إن سمعت أنك تشرب الخمر أو تخرج مع البنات أو لا تصوم رمضان، فسنأتي بك إلى الدار مربوطًا بالحمار.»

رن هاتف الوالد ثانية.

ساعدت أماني عمتها ووردة في نقل الصحون من على الطبلية، متعجبة من أن عمها هاني قد أنصت لأبيها. ربما له قلب، ولو كان أقسى وأصغر من حبة حمص نيئة.

في المطبخ كانت العمة فاطمة تحرك القهوة. مشاهدة أماني لعمتها وهي تمارس طقسها المسائي جعلها تشعر بالارتياح. العمة فاطمة، ممتلئة الجسم وقوية، تستطيع أن تنظف بيتها وبيت ستي وبيت جارة مريضة قبل الإفطار. تطبخ طبخات عظيمة وتكرس حياتها لعائلتها، للزوار والأحاديث، وحديقة ورودها. لم يسبق أن قرأت أو استمعت لعزف الأم على البيانو، ومع ذلك فهي تحبها وتعتمد عليها. وفجأة اكتشفت أماني أنها تحبها وتعتمد عليها أيضًا.

حين أخذت أماني صينية القهوة إلى المصطبة، كانت والدتها تمسك الهاتف وتمسح الدموع من على خديها.

«مع السلامة. قولي لها إني سآتي»، قالت، وأعادت الهاتف إلى الأب.

لم يسبق للأم أن بكت. مع من كانت تتحدث؟ إلى أين ستذهب؟

بقوا صامتين فيما كانت الوالدة تستجمع قوتها.

«أمي تحتضر بالسرطان. قال لها الأطباء إن أمامها شهرًا أو اثنين لترتيب أمورها. تريد أن تراني قبل أن تموت. إخوتي سيشترون لي بطاقة سفر من عمان إلى تورنتو. سأطير من الأردن إن تمكنت من السفر إليه.»

نادرًا ما تتحدث الأم عن الماضي. لا تعرف أماني سوى القليل عن جدتها الأخرى. حين كانت طفلة صغيرة شهدت المجزرة التي تعرضت لها قريتها عام 1948 حين هاجمتها القوات اليهودية. تيتمت ونشأت في القدس، ثم تزوجت رجلاً من قرية قرب بيت لحم. أماني تلقبها ستي الموسيقية لأنها علمت أمها العزف على البيانو. وحين صادرت إسرائيل أراضي تلك القرية، أخذت أولادها الصبيان إلى كندا. وحدها والدة أماني بقيت بعد أن ورثت عنها البيانو والخوف من العيش في قرية.

هز العم هاني رأسه، «لم تجازفين بالسفر مع كل هذه الطرق المغلقة والحواجز العسكرية؟»

«ينبغي أن أراها»، كان وجه الأم متجهمًا، «لكني لا أريد أن يشتري إخوتي بطاقة السفر لي. أفضل أن أبيع البيانو لئلا يظنوا أننا لا نستطيع شراء واحدة بأنفسنا»، ورفعت ذقنها باعتزاز.

أمسك الأب بيد زوجته، «ليس البيانو. لقد أعطته لك أمك. أستطيع أن أبيع كتبي..»

سحبت الأم يدها، وكاد الوضع يتطور إلى شجار.

تحدث العم هاني بنبرة حازمة: «دعونا لمرة واحدة نحترم عاداتنا هذه الليلة. لقد قررت وهو قرار نهائي.»

وتوقف قليلاً ليرشف من قهوته، ويستمتع باللحظة.

«دعي إخوتك يدفعون ثمن البطاقة. إنها رغبة أمك. لا شيء أكثر أهمية من إسعاد الأم»، وأومأ نحو ستي، «لا مزيد من الجدل عن الذهاب والمجيء. عمر يذهب إلى رام الله. روز تذهب إلى كندا. وذلك البيانو! البيانو سيبقى في الوادي.»

[12]

جلست أماني متقوسة الظهر، تلف يديها حول ساقيها على الأريكة الخضراء الداكنة، بينما أصابع أمها كانت تسبح فوق مفاتيح البيانو. فكرت أماني بستي. أصابعها تخبز الخبز مع أن دماغها نسي مكونات العجين. ربما تعيش الذاكرة في كل جوارح الجسد، في أوصاله التي مارست عملاً ما يوميًا لسنوات كثيرة، وليس في خلايا الدماغ فحسب. مالَت الأم على البيانو، وركزت أماني ذهنها ليلتقط صورة يحفظها، خصلة شعر مصبوغة بالأشقر تلتف فوق جبينها، ملامح وجهها ناعمة بلا تجاعيد تقريبًا.

توقفت الموسيقى، وتحولت إلى بضع نبضات من الصمت.

من الصعب تخيل ألا تكون الأم هنا.

أخذت أماني تبكي.

أحست بذراعي أمها تلفها.

«لم أعرف أنك تحبين شوبان إلى هذا القدر.»

نظرت أماني في عيني أمها البنيتين. كانت تستفزها ممازحة.

«أتمنى ألا تكوني ذاهبة غدًا.»

«لو كنت مكاني، هل كنت ستزورينني قبل أن أموت؟»

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«أكيد!»

«أتمنى لو أنك قابلتها. كنت ستحبينها جدًا. كنت أكبر منك بسنوات قليلة فقط حينما أُجبرنا على الرحيل عن قريتنا والعيش في مخيم. بكيت طوال أسابيع حين قرروا السفر إلى كندا. أمي كانت تعرف أني أحب فلسطين مثلما أحب روحي، وأني لا أستطيع العيش دونها.»

«صوري الكثير من مقاطع الفيديو، واطلبي منها أن تحكي قصصًا يا أمي. كيف أصبحت مسيحية. وعنك. أنت لا تتحدثين عن الماضي أبدًا. أريد أن أعرف كل شيء!»

«حقًا؟»

«حقًا.»

نظرت الأم من النافذة.

«للماضي طريقته في تدمير الحاضر، لكن ربما يكون الوقت مناسبًا لتعرفي المزيد.» استدارت لتواجه أماني: «حين تزوجنا أنا وأبوك، كان هاني هو الذي أقنع سيدو بقبول الكافرة في العائلة.»

جفَّ حلق أماني، وهزت رأسها غير مصدقة، «سيدو؟» قالت همسًا، «سيدو لم يقبل بك؟»

«رفض أن يحضر زفافنا، ولم يسمح لستي أن تحضر. بقيت ستي تبكي أسابيع، ثم جنَّ جنونها وأتت إلينا مع فاطمة.»

«وهل... هل اعتذر سيدو؟»

«لا! لم يتحدث أحدهما إلى الآخر لشهور. كان هاني منزعجًا جدًا، ولهذا أتى إلى القدس مع ستي وفاطمة. رجانا هاني أنا وأباك أن نأتي ونعيش في الوادي، وعرض أن يشاركنا في تركته. كان هاني هو الذي

توسط لتحقيق السلام، نوعًا ما، في العائلة.»

دار رأس أماني، «وماذا بعد؟ قبل سيدو بك، أليس كذلك؟»

دوَّرت ماما عينيها، «كان جدّك رجلاً شديد العناد، لهذا السبب نحن نعيش هنا على الجانب الآخر من الوادي.»

«بسبب سيدو؟»

أومأت أمها موافقة. «ثم حملتُ. مدهش ما يمكن أن يفعله مولود في العائلة. بدأت ستي تدعونا للعشاء على مصطبتها. إن أراد سيدو أن يأكل، أصبح عليه أن يأكل معنا. بقينا تسعة شهور نتجادل في الدين حتى هددت ستي بالعودة إلى الخليل. ووصلنا إلى حل وسط. وافقت على أن أسمح لسيدو بتعليم أبنائي أن يحبوا الله.»

«أو كان ذلك صعبًا؟»

«الرب، يهوه (11)، الله.. لم يعد الاسم مهمًا بالنسبة لي. أردت السلام. أخبرني إخوتي أن السكان الأصليين في كندا يسمونه الروح العظيمة. أحببت ذلك.»

«ولمَ لمْ يخبرني أحد بذلك؟»

«ولِمَ نستذكر أوقاتًا تَعِسة؟ تذكرين ما كان يقوله جدك حين يقف بين يدي الله في الصلاة، إن قلبه خالٍ من الغضب؟ أصبح يحمد الله على أن ولديه يعيشان في الوادي. كان جدك رجلاً تقيًا ورائعًا»، ضحكت الأم وهي تهز قبضتها مثلما يفعل العم هاني، «ما دمنا نستخدم كلمة الله.»

صوت عمر وأبيه على باب المطبخ جعلت الأم تستدير وتنادي: «ماذا

---

(11) يهوه، هو أحد أسماء الله عند اليهود كما تذكره التوراة.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

وجدتما؟»

تحول الحديث إلى خطط السفر. لبضع دقائق حاولت أماني أن تسمع. فتح الأب خريطة. عمر وأمه سيذهبان إلى قلندية، حيث الحاجز العسكري بين القدس ورام الله. ومن هناك تأخذ الأم سيارة أجرة إلى الحدود وتعبر جسر اللنبي. أما عمر فيتابع إلى رام الله.

حواجز عسكرية، طوابير انتظار طويلة، لم تعد أماني قادرة على الاستماع. أصبحت الغرفة ضيقة عليها. وتاقت لأن تكون تحت السماء الفسيحة على قمة سيدو حيث يمكنها التفكير بجدها. لا أحد انتبه إلى مغادرتها.

حين خرجت نادت ساحم ليأتي بالأغنام التي كانت ترعى الأعشاب المتفرقة مع ماعز الجيران على السفح فوق الدار.

على مضض عبرت أماني عائدة فوق الأرض المجرّفة العارية حيث كانت دوالي العنب فيما سبق. كان الجميع أعلى وأسفل الوادي يتحدث عن السبيل لمنع الإسرائيليين من تنفيذ الخطوة التالية: تعبيد الطريق. ركضت أماني حتى بلغت كرم الزيتون. ثم عاد تفكيرها إلى قصة أمها وسيدو.

كان جدها طاغية. الأمر جعل ذهنها يتقلب رأسًا على عقب، يمنة ويسرة. تدريجيًا أخذت أفكارها تهدأ، لتعيد ترتيبها قليلاً. حتى ولو كان قاسيًا جدًا مع والديها، فإن حبها له لم يتغير. يمكن القول إن صورة سيدو في ذهنها كانت بالأبيض والأسود، أما الآن فقد تلونت.

أقدامها كانت تتحرك تلقائيًا. وصلت أعلى الدرب، لتتفاجأ بأنها قد تقف على القمة. كانت السماء فوقها بيضاء تغشي العيون. قريبًا من

الصدع وجدت بقعة مريحة تواجه الشرق، فاستندت على صخرة وظهرها نحو الشمس.

كان الجو حارًا. وأغلقت عينيها.

ماذا كان ذلك؟ مدت يدها باحثة عن قدمها، فيما يدها الأخرى على صدرها. أحس جلدها بالبرودة. سريعًا عدت الغنمات التي كانت ما تزال ترعى، لكن قريبًا من درب الدار. عشرة.

استدارت لتتطلع في الصدع، وقد عرفت ما ستراه حتى قبل أن يقع بصرها عليه.

وقف الذئب أمامها، وكأن الصخرة التي تحت أقدامه قد انشقت وخرج منها للتو. كان أصغر حجمًا مما تتذكره، وقريبًا جدًا منها حتى أنها استطاعت أن ترى لون عينيه. أصفر.

الأذنان والذيل مشرئبة. كان يراقبها بإمعان، منتظرًا. لكن ماذا؟

مثل المرة التي سبقتها توثب جسدها للهرب.

لوحت بعصاها وصاحت: «اذهب!»

اختفى بين الصخور. وآخر ما رأته أماني منه هي نهاية ذيله الشاحبة.

حملقت أماني في إثره مصدومة. لقد طردته خائفًا.

ثم انتبهت لشيء جعلها تنسى أمر الذئب.

كانت هناك علامات X مرسومة على خط من الصخور في الصدع.

أحست بقلبها وكأنه يتدحرج على سفح هاوية. لم تتمكن من سحب أنفاسها.

منذ كم من الوقت علامات X موجودة هناك؟ بضع ساعات؟ أيام؟

الإسرائيليون يريدون بناء مستوطنة على قمة سيدو.

[13]

في غياب أمها وعمر أصبح في الدار فضاءات فارغة. ومثلما يبحث اللسان عن ضرس بعد أن سقط، كانت عينا أماني تجولان في الأرجاء مفتقدة إياهما في كل مرة تمر فيها بجانب البيانو أو بمكتب أبيها الذي اعتاد عمر أن يدرس عليه.

بعد العشاء مُدَّت ستة فُرشٍ على مصطبة سيدو. ووقف والدها على الدرجات يحملق في الوادي نحو دارهم المظلمة.

«أعتذر. أفضل أن أنام في الدار.»

قالت له العمة فاطمة ألا يعتذر.

قالت أماني: «سأذهب معك يا أبي.» لم تعد قادرة على تأجيل الأخبار السيئة أكثر من ذلك.

تراخت خطوات الوالد حين أخبرته بأمر علامات X. تأفف دون أن يقول شيئًا، حتى فتح الباب الجانبي المؤدي إلى مدخل الصالة المظلمة. مفاتيح البيانو كانت تعكس القليل من الضوء.

«سينصبون سورًا في وقت قريب»، قال بنبرة خالية من أي تعبير.

تمنت أماني لو أن أمها موجودة لتقول الشيء الصحيح. كل ما كان بمقدور أماني أن تفعله هو أن تضيء مصباحًا.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«هل رأيت أي مستوطنين؟ جنود؟ أي أحد على القمة؟»

«لا.»

قلّبَ الأمر في ذهنه، «إلى أين ستذهبين بأغنامك إن لم تستطيعي أن تسرحي بها هناك؟»

دون قمة سيدو، عليها أن تتشارك السفح الجنوبي المُنهك من الرعي مع قطعان جيرانهم.

«سأجد مكانًا ما آخر.»

وضع أبوها إصبعًا على شفتيه، على نحو ذكرها بسيدو، «سأخبر هاني، لكن ليس الليلة. ذلك لن يؤدي لشيء سوى حرمانه من النوم. أريد أن أجري بعض المكالمات الهاتفية أولاً. سأنظم احتجاجًا ضد الطريق السريع.»

لا بد وأن والدها أخبر عمها هاني بالخبر السيء في اليوم الثاني. دون أن يقول ولو كلمة، بدأ يختفي كل مساء على حماره قبل وقت القهوة. مرة في الأسبوع، وأحيانًا مرتين، كانت الوالدة وعمر يتصلان ليتحدثا بأخبارهما. في كندا أصبحت الأم تخطط لتعيش إلى الأبد بعد أن أصبحت والدتها بجانبها. اصطنعت أماني ضحكة محاولة أن تبدو سعيدة. عمر أحب بيرزيت والتعرف على غيره من الطلاب. وانضم لمجموعة سياسية، كانوا يخططون لتظاهرة. بدت له هناك أكثر أمانًا من الوادي.

لم تخبره شيئًا عن علامات X. ولا والدها قال شيئًا.

كل صباح كانت أماني تأمر ساحم أن يبقي الأغنام في الحرش فيما تصعد هي الدرب المنحدر وحدها. مع كل خطوة كان قلبها ينخلع

حتى يبلغ حلقها، إلى أن تنكشف الرؤية أمامها وتتمكن من مشاهدة المكان على القمة. وحين تدرك أنها هناك وحدها، تبتلع مخاوفها ليوم آخر وتنادي ساحم.

كانت ترى كل يوم آخر تتمكن فيه من رعي غنمها على قمة سيدو نعمة. وحين تسمع رفع الأذان، كانت تقول كما علّمها جدها، الله أكبر. تابعت الآلات الصفراء تقدمها صعودًا على السفح الشمالي لقمة سيدو، فيما تلك التي على الجانب الجنوبي بقيت صامتة في واديهم الضيق على نحو يثير الحيرة. كان عمال البناء يحملقون في أماني حينما تراقبهم من الحافة الشمالية، ثم تجاهلوها. تخيلت ما الذي كانوا يرونه فيها. بنت فلسطينية وحيدة مع غنمها. يصعب أن تكون تهديدًا.

مع اقتراب الآليات من القمة، أصبحت أماني تحس بنفسها حبيسة ساعة رملية. الزمن أخذ يتسارع وحبات الرمل تمر عبر القمع للأسفل بسرعة أكبر. آخر يوم في أغسطس أصبح يمثل لها الساعات الأخيرة على أرض جدها، وأخذ الوقت يمضي سريعًا والساعات تمر كأنها دقائق. صار العمال قريبين جدًا منها حتى أنها استطاعت أن تشم قهوتهم.

عصر ذلك اليوم وصلت عدة شاحنات إلى القمة. وصعد الرجال إلى صناديقها لإفراغ القضبان المعدنية ولفافات الأسلاك الشائكة. بجانبهم وقف جندي معه بندقية أشار إلى أماني أن تبتعد.

أرادت أماني أن تصرخ فيهم. هذه أرض أجدادها منذ ألف سنة. توقف عامل ليقول نكتة للجندي. وضحك الاثنان وهما يتطلعان إليها بنظرة مريبة.

شعرت عندها بالخوف؛ فقد كانت وحدها بعيدة عن الوادي. وهم رجال ومعهم أسلحة.

أشارت بيدها إلى ساحم ومشيا مبتعدين يسوقان الغنم نحو الزاوية الجنوبية الغربية والدرب إلى الدار.

السلامة قبل كل شيء. ولكنها كرهت أن تمشي مبتعدة وتشعر بأنها جبانة.

على سنام الجمل لمحت ومضة ضوء. حدقت في البقعة. كل ما كان تحت شمس الغروب لون وردي.

أكانت انعكاسًا لعيني الذئب؟

جالت بعينيها على السنام. لا شيء كان يتحرك.

الوجه الأسود توجهت إلى الصدع لترعى وحملها قريب منها. ومن خلف أماني، نبح ساحم قرب الدرب. هل سيعودون إلى الدار؟

ليس بعد.

صعدت على صخرة وحملقت في القمة. كان الرجال يصعدون الشاحنة.

صاحت: «اذهب! ابتعد!»

دار محرك الشاحنة واختفت وراء الحافة الشمالية. لوحت أماني بقبضتها وراءهم وكادت تصرخ ثانية حين سمعت نباحًا شرسًا جعلها تستدير.

على الجانب الآخر من الصدع وقف الذئب على صخرة وهو ينظر إلى سنام الجمل. ذيله كان منتصبًا وشفتاه تكشفان عن أنيابه. ساقاه الأماميتان منحنيتان، تقوّس أوصاله كان سريعًا جدًا لدرجة جعلت ركبتي أماني ترتخيان.

صاحت أماني في الوجه الأسود، «اركضي!»

من على الجانب الآخر من الصدع، فوق الذئب، أتاها الصوت مريعًا.

فرقعة طلقة بندقية. ألقى الذئب بنفسه على الأرض مثيرًا الغبار بين الصخور بقدميه الأماميتين. ثم اختفى بين صخرتين كبيرتين.

فرقعة ثانية.

سقطت الوجه الأسود على الأرض. انبجس الدم الداكن من رأسها يسيل على ظهرها. مذعورةً، قفزت أماني من على الصخرة قبل أن ترفع بصرها نحو سنام الجمل.

رجل ملتحٍ يعتمر قبعة مدورة، كان يقف في المكان الذي شاهدت فيه أماني ومضة الضوء قبل بضع دقائق. بجانبه وقف صبي من جيل عمر. ضفائر بنية طويلة كانت تتدلى على جانبي وجهه، كما يتدلى من رقبته منظار أسود.

مستوطنون.

صاح الصبي بالإنجليزية: «لا! أبي...» ثم تابع بكلمات غير مفهومة.

رفع الرجل بندقيته ثانية. ورفع الصبي يده.

لم تنتظر أماني. بل أمسكت الناجية وهي تصرخ بساحم ليأخذ الأغنام إلى الدار. كان قد بدأ ينبح عليها بالفعل ليسوقها بعيدًا عن القمة.

ركضت أماني نحو الدرب خوفًا من فرقعة ثالثة وأخيرة. قفزت حول الصخور بطريق متعرجة طلبًا للسلامة.

بعد أن نزلت جانبًا من السفح، أنزلت الناجية التي أصبحت كبيرة على حملها. وأخذتا تركضان وراء البقية الباقية. كم من الوقت يحتاجه رجل ليعبر الصدع؟ حينها تذكرت بندقيته. المكان الوحيد الذي

تستطيع الاختباء فيه هو كرم الزيتون. لم تبدُ الأشجار بعيدة عنها. ركضت أماني مرعوبة في الحرش المفتوح والناجية بجانبها.

وفي اللحظة التي أصبحت فيها بين أولى أشجار الزيتون، قبعت خلف واحدة ونظرت وراءها. لا أحد كان يتبعها. وضعت كفًا على صدرها لتهدئ روع قلبها الذي ما يزال يخفق سريعًا. الفروع والأغصان والأوراق كانت ترتفع أمامها مثل درع يحيط بها.

غمر الظل الكرمَ. ليست هناك أصوات ملاحقة، فقط صوت أنفاسها بعد أن عادت لطبيعتها، وثغاء الأغنام التي تنتظر السماح لها بالعودة للحظيرة.

[14]

كانت العمة فاطمة ووردة تضعان آخر أطباق العشاء على المصطبة. منذ سافرت الأم أصبحت العمة فاطمة مراقبةً لأماني. وحين جلست بجانب أبيها، تطلعت إليها عمتها بإمعان.

«ما المشكلة؟ شيء ما حدث. أخبرينا.»

بحزن، حكت لهم أماني عن الشاحنات الإسرائيلية التي وصلت القمة ومستلزمات السياج التي أفرغتها. ثم أخذت نفسًا.

«مستوطن قتل الوجه الأسود برصاصة.»

قفز العم هاني واقفًا وانفجر مثل قنبلة: «ألم أقل لكم ما الذي سيحدث؟ مستوطنون!»

حاول أبوها أن يهدئه: «تعرف أننا لن نستطيع منعهم. تعرف أنهم سيزعمون بأنها أرض غير مأهولة. سنرفع الأمر إلى المحكمة. إنهم يخالفون القوانين الدولية.»

«محاكم من؟ محاكمهم! سنضيع مالنا ووقتنا. سننضم إلى الطابور الطويل من قضايا الأراضي الفلسطينية. لا! فلنقاتلهم الآن ما دامت لدينا الفرصة لفعل ذلك.»

«كيف يا هاني؟ هم أكثر تسليحًا.»

«القرآن يقول لنا أن نقاتل من يعتدي علينا. لدينا مقاتلون من المقاومة. قناص، في موضع جيد..»

قاطعه أبوها: «لو قتلت مستوطنًا فسيتصاعد العنف.» تصاعد دخان السيجارة من فمه، عادة جديدة منذ سافرت أمها، «اصبر يا هاني. لدي أصدقاء يساعدونني على تنظيم مظاهرة احتجاج.»

«مظاهرات»، لفظ عمها هاني الكلمة وكأنه يبصقها، «الإسرائيليون يضحكون على مظاهراتنا. غدًا يعبّدون الطريق السريع. ثم يأخذون بقية أرضنا. من حق الإنسان أن يدافع عن أرضه. أستطيع على أقل تقدير أن أنسف السياج.»

واحتد صوت أبوها: «وما الذي سيحققه ذلك. سيبنونه من جديد. لكن قبل ذلك سيعاقبوننا جميعًا أيضًا، كل من في القرية.»

أخذ العم هاني يذرع المكان جيئة وذهابًا وكأنه حيوان حبيس في قفص. فجأة وقف وأشار إلى أماني.

«لم يعد هناك رعي يا بنت.»

تألّمت أماني. صارت قريبة من أن تفقد أغنامها.

«ساحم سيكون معي و..»

«أي حماية سيوفرها كلب؟ سيطلقون الرصاص على الكلب، ثم على الأغنام، ثم عليك. لن يكون هناك شاهد، هذا إن كان الأمر مهمًا. سنصعد لنبحث عنك ونجدك جثة هامدة.»

أومأ والدها موافقًا وعابسًا، «معه حق يا أماني. الأمر لا يستحق المجازفة.»

صرخت أماني: «ولماذا تقف بجانبه. لقد أصبحت كبيرة بما يكفي..»

صاح عمها هاني: «أنت كبيرة بما يكفي لجندي ليفعل ما يريده معك إذا ما عثر عليك وحدك.»

كانت الدنيا تزداد ظلمة مع كل كلمة غاضبة. قامت العمة فاطمة وأشعلت فانوسًا. رائحة الكاز قتلت شهية أماني للطعام. وشبكت ذراعيها حول صدرها.

كزَّ العم على فكيه: «يلزمنا شـاحنة جديدة، وأنابيب ري جديدة. سنبيع الأغنام.»

كيف يمكنها أن تنقذ غنماتها؟ سمعت أماني صوت سيدو في رأسها، كان يرشدها في تلك المواجهة. احترمي كرامته.

عمها هاني يشعر بالمسؤولية. إنه قلق على سلامتها.

أخذت أماني نفسًا عميقًا وأنزلت ذراعيها.

«معك حق يا عمي هاني. لن آخذها إلى القمة ثانية. أبدًا. معك حق. ما عاد المكان آمنًا هناك.»

كان وعدًا يسـهل الالتزام به. ذلك أن سـياجًا سيحيط بالقمة بعد بضعة أيام.

«سأسرح بها في الأماكن الآمنة فقط. هنا عبر الوادي أو أعلى دارنا. لن أذهب لقمة سيدو أبدًا، أعدك.»

عدّل العم سرواله: «طيب، اسرحي بالغنم لمدة أطول. أيامها معنا معدودة ما لم نقاتلهم.»

وانصرف عن المصطبة غاضبًا دون أن يأكل. ثم نهق الحمار، وسمعوا وقع حوافره على الطريق نحو القرية. تنهدت العمة فاطمة ومضت إلى المطبخ لإعداد القهوة.

[15]

استيقظت أماني على صوت رنين هاتف أبيها.

لبست بسرعة وغادرت الدار معه، وعبرا الوادي مشيًا نحو دار سيدو.

رفع المؤذن أذان الفجر. وتطلعت أماني نحو قمة سيدو. شعرت وكأن أحدهم قد أنزل قفصًا على الوادي.

«سنتظاهر اليوم.»

للمرة الأولى منذ أسابيع تحس أماني بالحماس في صوت أبيها.

«ماذا؟» سألت متعجبة ما الذي يثير الحماس؟ الضرر قد وقع. ثلاثون مترًا قد تم تجريفها في قلب كرم كل منهم. وذلك الشريط الضيق من الدوالي على جانبي الأرض المجرفة لن تكفي لملء شاحنتهم بالعنب في موسم القطاف.

«على ماذا ستتظاهر؟»

كان الوالد شديد الاستغراق في خططه ما جعله لا يلحظ نبرة سؤالها.

«سيبدؤون تعبيد الطريق اليوم.»

تذكرت أماني المكالمة الهاتفية التي أيقظتها: «هل حصلتم على تصريح؟»

ضحك الأب: «شيء أفضل. مراسل صحفي. أصدقائي سيأتون معهم

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

بصحفي ومعه كاميرا. سيكونون هنا بعد ساعتين لتغطية التظاهرة. سأعلق المقطورة بالجرار. لا تذهبي بعيدًا.»

في الحظيرة، أرضعت أماني الناجية بعض حليب النعاج من قنينة، وهي تحتضن النعجة الصغيرة دافئة الصوف بين ذراعيها. الأغنام الأخرى كانت تنتظر عند الباب، جائعة، عطشى. ساقتها للأعلى نحو كرم الزيتون وملأت حوض الشرب بالماء. واستندت على عصاها، معطية ظهرها لجبل سيدو.

انتظر ساحم متحفز الأذنين، لكنها لم تعطِ أي إشارة. إلى أين يمكنها أن تأخذ الأغنام لترعى؟ تطلعت أعلى وأسفل الوادي، ثم إلى السفح الجنوبي أعلى دارها. غيرها من الجيران أخذوا أغنامهم وماعزهم إلى المكان. المنطقة مرهقة من الرعي.

إن لم تتمكن من الوصول إلى مرعى نظيف فلا سبيل لها لتسرح بقطيعها الصغير.

مشت على مهلٍ بجانب الحائط الحجري الخفيض، تحملق في السفح الصخري.

صوت سيدو كان يتحدث في داخلها. إنه هناك.

الدرب. الدرب المؤدي إلى الفردوس.

أين؟ لم ترَ شيئًا غير جلاميد من الصخر على السفح فوق الحائط. محبطة تركت غنماتها ترعى مدرجات الزيتون العليا، إلى أن سمعت صوت محرك الجرار يدور.

كانت العائلة في المقطورة تنتظر قدومها. تحركت وردة لتفسح لها مكانًا. وقفزت المقطورة إلى الطريق. الكل ارتطم بالكل وضحكوا. ما عدا أماني.

لم تبتسم، إلى أن أثار عمها دهشتها حين بدأ يهتف: «لا للطرقات! هذه أرضنا!»

صفقت وردة وهتفت مع أبيها. ووضعت العمة فاطمة كفها على فمها وزغردت، صوتٌ عالٍ يثير الحماس يرتفع من قلب حنجرتها.

وحين بدأت ستي تصفق وتهتف، ضحكت أماني أخيرًا. أصبح عليها حينها أن تنضم إليهم.

«نبيل! تعال معنا! يسار!» نادى الأب على رجلين كانا يعملان في الحقول.

واحدًا بعد الآخر، ترك الرجال حقولهم ولحقوا بهم. وفيما كانوا يقتربون من القرية، بدأ الناس يخرجون من دورهم الحجرية وحدائقهم الصغيرة، وحتى المسجد للالتحاق بهم. وانعطف الأب بالجرار يسارًا، وقاد مظاهرة طويلة نزولاً على درب الجرارات نحو الطريق السريع.

استدارت أماني لتنظر إلى الجزء المعبد من طريق المستوطنين السريع، الذي ينعطف غربًا نحو مدينة الخليل. شاحنات وحفّارات وعمال في خوذهم يمدون الإسفلت على الجزء الجديد.

وعلى كتف الطريق قريبًا منهم شاهدت سيارتين بلوحتين صفراوين متوقفتين. ولوّح لوالدها ثلاثة رجال وامرأة. أحدهم كان يحمل كاميرا ويصور. اثنان يضعان قبعتي بيسبول حمراوين. الرجل الثالث جعل أماني تشعر بالعصبية. كان يعتمر قبعة مدورة مثل المستوطنين.

لوح الأب وصاح عليهم: «سلام! شالوم! تعالوا! شاركونا!»

خرج بالجرار من كرم العنب وصعد إلى الأرض المفروشة بالحصى، متقدمًا نحو المنطقة التي يعبدونها.

تحولت المظاهرة إلى حصار بشري مضروب يقطع الطريق السريع. أوقف الوالد المحرك وقفز منه مترجلاً. الرجل والمرأة بقبعات البيسبول انضموا إلى الرجال والصبيان الذين يلبسون قفازات زراعية، وكذلك النسوة المحجبات، الرضع والأطفال الصغار المتعلقون بتنورات أمهاتهم الطويلة. وفي آخر الصفوف رجل عجوز يجلس في عربة يدوية بدولاب واحد يدفعها فتى يافع.

أخذ الرجل الذي يحمل الكاميرا يصور الجميع.

والرجل الذي يعتمر قبعة مدورة خطا نحو والد أماني وعانقه. لا شيء سبق وأن صدم أماني مثل رؤية أبيها يعانق ذلك الرجل.

مبتسمًا، عَرَّفَ الوالد الحاخام على عائلته التي في المقطورة. منذهلةً، كل ما استطاعت أماني أن تفعله هو أن تومئ برأسها. وكان وجه عمها متجهمًا ولا يبدي الود.

أما ستي فوقفت ومدت يدها لمصافحة الحاخام.

«أهلاً. حين كنت بنتًا صغيرةً في الخليل، كان هناك حاخام يعيش في حارة اليهود بجوارنا»، قالت بِودٍّ، «كان رجلاً لطيفًا جدًا.»

حدقت أماني مدهوشةً في أبيها. هو من نظم التظاهرة، وكان يعرف الحاخام. عند والدها أصدقاء أتوا لمساعدته حين كلمهم بالهاتف.

من بعيد كانت سيارات الجيب العسكرية الخضراء الداكنة تسرع على الطريق السريع آتية نحوهم. هتف المتظاهرون وصفقوا. توقفت أعمال التعبيد وتجمع الرجال ذوو الخوذ وراء الجنود.

وقفت السيارات المحملة بالجنود بين المتظاهرين والعمال. وأُشْهِرَت عشرات البنادق على الحصار البشري فيما كانت إحدى سيارات الجيب تقترب من المقطورة. ارتفع الغبار من التراب على الأرض. وحين توقفت، ترجل جندي من السيارة واقترب من الأب.

تحول فخر أماني إلى خوف. كان واضحًا أن أباها هو القائد لما يجري. وما تراه في الأخبار التي تشاهدها هو أن القادة الفلسطينيين يُقادون إلى السجون.

كان الجندي صغير الحجم عالي الصوت. وخمنت أماني أنه الضابط الذي يقود الجنود. كان يتحدث العربية بطلاقة.

«أين هو ترخيص التظاهرة الذي معك؟» قال وهو ينخز صدر والدها بإصبعه.

«أين هو ترخيص بناء طريق سريع ومستوطنة على أرض عربية؟ لم نعطكم ترخيصًا لتفعلوا ذلك.»

الضابط، الذي كان في نصف عمر الأب، لم يبدُ كمن توقع أن يوجه أحدهم له سؤالاً. وأشار إلى الصحفي وصرخ فيه بالإنجليزية: «ممنوع التصوير! الصور ممنوعة!»

ثم حملق الضابط بالعائلة في المقطورة. وارتعدت أماني حين تحول نظره إليها. غير أن نظراته توقفت أخيرًا عند ستي.

عاد للعربية: «إن لم تغادروا الطريق السريع فورًا، سآخذكم جميعكم إلى السجن. أهذه أمك؟ لقد رأيت نسائكم يهللن حين يفجر أبناؤهن الناس الأبرياء. أي أمٍّ تفعل هذا؟ ليس عندي أي تعاطف مع أمهاتكم. وسنبدأ بها.»

انطلقت شرارة الغضب في أماني. كيف تجرأ على إهانة ستي؟

استدارت أماني إلى ستي: «أنت خائفة؟»

هزت ستي رأسها، «أنا امرأة عجوز، صليت طوال حياتي، وأنا لست خائفة منه.»

«إذًا هيّا نقف بجانب أبي.»

ساعدت أماني جدتها في النزول من على ظهر المقطورة. كانت ستي أقصر من الضابط. رفعت نظرها إليه وهزت إصبعها في وجهه وكأنه ولد طائش.

«تنبه لكلماتك وأنت تتحدث مع ابني»، قالت له ستي.

ظنت أماني أن ستي قد نسيت أسماءهم. لكن لم يكن ذلك مهمًا.

«وحفيدتي، وأهل قريتي. خذني إلى السجن. لقد أتعبتموني ولهذا ستضطرني للجلوس.»

قعدت ستي على الأرض، وحملقت أماني في الضابط.

وقبل أن تفقد أماني شجاعتها، قالت: «وأنا أيضًا.» وقعدت بجانب ستي.

وفورًا نزل العم هاني والعمة فاطمة ووردة من المقطورة، وقعدوا بجانبهما متربعين على الأرض. دون أي كلمة، جلس كل أهل القرية ومعهم الغريبان ذوا قبعتي البيسبول الحمراوين.

كان الأب آخر من قعد، على حذاء الضابط تقريبًا.

الحاخام هو وحده الذي بقي واقفًا. تحدث بالعبرية مع الضابط مشيرًا بين الحين والآخر للاعتصام السلبي. تدريجيًا، غابت النظرات الغاضبة من عيني الضابط، غير أنه بقي متبرم الوجه.

ثم جلس الحاخام بجانب الأب.

كان المصور يلتقط الصور بهدوء. إما أن الضابط تجاهله أو أنه كان مشغولاً جدًا في إعطاء الأوامر بحيث لم يلحظه. وتوجه العمال والجنود إلى مركباتهم.

«اقعدوا»، قال الضابط وهو يرفع كتفيه بلا اكتراث، «اقعدوا كل اليوم لو أردتم. لكن أي فلسطيني يعترض العمل غدًا سيرمى بالرصاص. هذه منطقة أمنية.»

حين مضت آخر سيارة جيب، قام المتظاهرون وهتفوا. والعمة فاطمة بدأت تزغرد. زغردت معها أماني ووردة، وتبعتهن كل النسوة أيضًا. كان الهتاف معًا شيئًا رائعًا. ثم عانقوا بعضهم البعض، وضحكوا مرتاحين. وتوزعت التظاهرة على مجموعات صغيرة لبحث ما يمكن أن يفعلوه لاحقًا. وكان الأب والحاخام يتنقلان من مجموعة لأخرى، يتحدثان مع الجميع. وبدأ الناس ينفضّون. حان الوقت ليمضوا كل إلى شأنه.

تضايقت أماني وهي ترى الجمع ينفض. وقفت بجانب وردة وابنة خالة وردة بجوار أمها رجاء، وطلبن من والدها والحاخام أن يترجم لهن كل شيء قاله الضابط.

«إنه ينفذ الأوامر. هو مكلف بحماية الطريق السريع.»

هز العم هاني قبضته: «لو كان نخز صدري أنا لكسرت فكيه.»

«لا تلمس جنديًا!» قال الأب، ووافقه الحاخام.

صافحت أماني دعاة السلام بقبعات البيسبول الحمراء. كما صافحت المراسل الصحفي. وعلى الرغم مما أحست به من غرابة في الأمر، فقد

صافحت أيضًا الحاخام. ابتسم لها. كانت عيناه زرقاوين كاشفتين.
حشرت أماني نفسها بجانب وردة ورجاء على ظهر المقطورة، وشاركت الجميع المرح وهم يمازحون من يمرون به من المشاة على الدرب نحو القرية، إلى أن رأت من بعيد السياج المنصوب حول قمة سيدو. وبدا لها السياج الذي علته لفافات الأسلاك الشائكة مثل تاج من الشوك.
قالت ستي مبتهجة: «كان ذلك عرسًا جميلاً!»
ضحك الجميع ضحكًا هستيريًا حتى أبكاهم، وأشاحت أماني بوجهها وهي تبكي أيضًا.
بعد العشاء اقترح والد أماني أن يناما مع عائلة العمة فاطمة على مصطبة سيدو. لم يكن هناك أي اعتراض. ولم يمضِ العم هاني على الحمار. اتصل الأب بعمر، ثم بالأم، وأخبرهما بالمظاهرة.
في الظلام، كانت أماني تنصت بلا تركيز لوالدها. المستوطنون قادمون ليعيشوا وراء ذلك السياج على قمة سيدو. كيف سيكونون؟ هل سيكونون مثل ذلك الذي قتل الوجه الأسود؟
فكرت بابن المستوطن. تمنت لو أنها فهمت ما قاله وهو يصيح. لقد أراد أن يمنع أباه. إن كان جيرانها الجدد يتحدثون الإنجليزية وتعين عليها أن تحمي أغنامها منهم، فيجب أن تفهم كلامهم.
أحضر والدها الهاتف. كان أمرًا رائعًا أن تسمع صوت أمها.
قالت أماني: «لقد قررت شيئًا يا أمي.»
«وما هو؟»
«أريد أن أدرس الإنجليزية مع الآنسة عبوشي.»

من وراء المحيطات، على موجات الأثير، استطاعت أماني أن تسمع أمها تفتح فمها دهشةً.

«سأذهب إلى المدرسة.»

[16]

في الأعلى بين مدرجات الزيتون، سرحت أماني بأغنامها بتمهل، وتركتها تقضم أي شيء تعثر عليه. كان غبار الصيف يثور من تحت أظلافها.

مشت أماني بجانب الحائط تحت سنام الجمل. قال سيدو إن الفردوس كان وراء السنام. أجدادها هم من أتوا بالصخور من الهضبة الصغيرة وقطعوها بالأزاميل بعناية لبناء الحائط الحجري الطويل. هل بنوا الحائط لإخفاء الدرب؟

تجمعت الغنمات حول حوض الشرب وهي تثغو دون صبر. ملأته أماني وعادت لتمشي بجانب الحائط، وعيناها تحدقان في السفح والصخور. لقد مرت بجانبه آلاف المرات، وجالت بنظرها عليه من كل زاوية محتملة. ما الذي غفلت عنه؟

انتبهت أماني لوجود كومة روث غنم كبيرة وحديثة العهد، فحولت نظرها حتى تتفاداها. كانت تلبس حذاءها القديم، ونادرًا ما كانت تهتم على أي شيء تدوس. بعر الغنم الجاف كان يتناثر على الأرض بأحجام مختلفة.

بعد خطوتين للأمام لفت انتباهها شيء غير معتاد. جثت لتنظر عن

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

قرب، قطعة صغيرة ومدورة من الروث. كانت في معظمها شعرًا وعظمًا. بيضاء، ربما هي هناك منذ أسبوع.

لقد كان الذئب في الحرش.

حملقت في الحائط حيث الروث مباشرة. كل صخرة هي في مكانها حيث وضعوها منذ زمن طويل، يثبتها الملاط والضغط، كما تتذكر من دروس فيزياء عمر.

وضعت عصاها على أعلى الحائط وتسلقته لتجثو على جانبه الأعلى المنبسط. ثغت الناجية، التي كانت أصغر من أن تقفز، فمدت أماني يدها وسحبتها.

«نعجة سخيفة. لكن ما دمت هنا، فربما يمكنك مساعدتي على إيجاد درب.»

وقفت أماني، ومالت بجسدها نحو السفح. على كفيها وقدميها مثل الضفدعة، بدأت تسلق السفح على الصخور باحثة.

بجانبها، ومن ثم أمامها، قفزت الناجية على بضع صخرات ثم اختفت.

«الناجية؟»

دون أن تراها، كانت الناجية تثغو أعلى السفح.

زحفت أماني إلى حيث تظن أن الناجية قد اختفت. تمعنت في الصخرة تحت يديها. كانت هناك فتحة بين صخرتين، فتحة تكفي ليمر منها حيوان.

درب.

كان هناك درب غير مرئي من الأسفل يصعد مموهًا إلى الجانب الجنوبي من سنام الجمل. وعند أول منعطف فيه ما عادت ترى

الدرب ولا الناجية.

تسارعت دقات قلب أماني، «انتظري أيتها الناجية! سنلحق بك!»

بحماس، تدبرت طريقها عائدة للجدار لتأخذ عصاها، وأمرت ساحم أن يأتي بالأغنام.

«يا الله!» صاحت به.

واحدة بعد الأخرى، قفزت الغنمات على الجدار، ثم بضع صخرات واختفت. تبعها ساحم، وأخيرًا أماني.

كانت الصخرة بجانبها عالية حتى خصرها تقريبًا. كان من الصعب تصديق أن الدرب حقيقي. تطلعت وراءها، لتعود الطمأنينة لنفسها حين رأت الحائط وهو يمتد في الاتجاهين. أسفلها، بدا لها الحرش مثلما تعرفه، وحوض الشرب في أحد طرفيه ومدرجات الزيتون في الطرف الآخر.

الدرب الصاعد كان ضيقًا وحادًا. كان دائم الاتجاه شرقًا، ويلتف حول الجانب الجنوبي من السنام. استطاعت أن ترى الطريق السريع الإسرائيلي حين مالَ الوادي جنوبًا. ولم تعد قادرةً على رؤية الحرش وراءها.

بدأ الطريق يتسع أمامها. لم تتمكن أماني من رؤية القطيع أمامها لكنها كانت تسمعه، وتسمع ساحم على الدرب الملتف فوقها.

كم مضى عليها وهي تمشي صاعدة؟ نصف ساعة، وربما أطول. حافظت على حركة قدميها حتى بدأت حدة انحدار الدرب أمامها تقل، ووجدت نفسها أخيرًا تخرج من بين الصخور. كانت قمة سنام الجمل قد أصبحت وراءها، وتحجب عن بصرها قمة سيدو.

على الأرض، انتهى الدرب أمامها. وبدأت غنماتها ترعى بسلام.
استرخت أماني، وكافأت ساحم بلمسة سريعة، «كلب طيب.»
كانت القمم الترابية المعزولة تقطع الأفق أمامها على امتداد هضبة طويلة أمام تلك القمم. كان المكان أشبه بعالم خفي.
في الشرق بدأت الشمس تلتمع في سماء الصباح الباكر مثلما كانت عليه وهي في الوادي. الأرض جافة، غير أن ما يغطيها من نباتات كان أكثر مما في الوادي. شدت أماني قبضتها على عصا سيدو. تحت أصابعها أحست بالخشب أليفًا على نحو يبعث الطمأنينة في النفس.
«ما رأيك يا ساحم؟ في أي اتجاه نذهب؟»
هز ذيله ونبح.
«الشرق. تمامًا مثل رأيي»، قالت أماني وهي تسوق القطيع نحو القمة الوعرة على حافة الهضبة.
تبين لها أن البقعة الخضراء ـ على امتداد الحافة الشمالية ـ ما هي إلاّ صدع عريض في الأرض، محمي من أشعة الشمس. قعدت أماني في الظل فيما وجدت غنماتها في ساعة كلأً يزيد عما كانت تجده طوال أسبوع.
مرَّ الصباح خفيف الوطء مثلما كانت عليه الحال برفقة سيدو. وحين وصلوا أخيرًا إلى أسفل السفح الصخري الحاد البعيد، تركت غنماتها تسرح على راحتها لترعى. في منتصف الدرب وفي الأعلى، تنبثق كتلة من الصخور وكأنها شرفة طويلة.
شاهدت نبتة خلة (12) في الأرض تنمو في ظل شق بين الصخور. كانت

(12) الخلة نبتة برية مزهرة تنتشر في إقليم المتوسط وجنوب أوروبا، أزهارها بيضاء اللون.

الزهرة الصيفية المفضلة لأمها. جمعت أماني منها باقة في يدها وهي تستكشف المكان، وتبحث بحذر حول الصخور.

عند نهاية الصدع تمامًا، وقع نظر أماني على درج طبيعي يرتفع بين الصخور. كان يقود لأحد طرفي الشرفة.

نبح عليها ساحم. فأمرته أن ينتظرها مع الغنمات.

مع أن الصعود شديد الانحدار إلا أنه كان سهلاً. وحين وصلت أماني الدرجة الأخيرة شهقت.

وراء الشرفة، شاهدت مرجًا جبليًا صغيرًا، مغطى بالأعشاب الخضراء الوارفة. وفوقه، تنبجس عين ماء تأتي بالماء إلى الأرض أمام الشرفة.

لا شيء كان يتحرك على السفح الصخري فوقها. وجالت عينا أماني مرتين على المرج قبل أن تتسعا خوفًا.

على الجانب البعيد، يستلقي رجل بين العشب الطويل وظهره نحو أماني. قميصه الأخضر الداكن جعل كتفيه مموهين. وما لفت انتباه أماني إليه هو شدة زُرقة سرواله الجينز. كان رأسه مكسوًا بشعر بني طويل وكثيف.

رجل شاب؟ ابن المستوطن؟

كان مستلقيًا على ظهره، ويتكئ على كوعيه رافعًا رأسه وكتفيه، ويتطلع بمنظاره إلى السفح الصخري فوق المرج.

ما الذي كان يتمعن فيه بهذا الاهتمام؟ أهناك مستوطنون آخرون يستكشفون المكان أمامها؟ كيف عثر على الدرب إلى الفردوس؟

ثم تذكرت ارتفاع صوتها وهي تنادي على الناجية بعد أن اختفت وهي تدلف في الدرب المحجوب عن النظر. لا بد وأنها كانت ظاهرة تمامًا

لكل من يراقبها من قمة سيدو.

لقد تبعها الصبي. وجد طريقه إلى الفردوس- دون أن يلاحظه أحد - فيما هي مسترخية ترعى غنمها.

أصابتها الفكرة بالغثيان، وتأففت بصوت عالٍ.

استدار رأس الصبي بسرعة، وقفز واقفًا على قدميه وهو يصرخ بالإنجليزية. رمت أماني باقة الزهر وهربت، وهي تدعو الله ألا تكون ذاهبة مباشرة نحو بندقية أبيه.

[17]

«أسرعي يا أماني!»

لثالث مرة تصرخ وردة بإلحاح من على الدرب، سمعتها أماني وهي ما تزال في حظيرة الغنم، وانتظرت الناجية حتى شربت آخر قطرة حليب في القنينة.

يومها التاريخي الأول لها في المدرسة لم يكن واعدًا ببداية جيدة.

لمَ أرادت وردة ورجاء أن تغادرا في هذا الوقت المبكر؟ تجمعت الغنمات وراء أماني وهي تركض إلى باب الحظيرة، وكأنها تهرب منها.

«سأعود عصرًا»، قالت أماني وهي تنسل خارجة وتدفع بالمزلاج في مكانه، «أبي سيسرح بكم في الحقول وهو يعمل. سأحاول أخذكم للفردوس ثانية.»

أمس هربت عبر الهضبة نحو الدرب الذي يهبط بين الصخور. وفجأة انتهى الدرب فوق الحائط الحجري مباشرة. أمامها، كانت الفسحة بين الصخور ممتلئة بالحجارة. تسلقت أماني خارج الدرب إلى الصخرة الكبيرة تحته، وساعدت الناجية ثم تزحلقت إلى الحائط.

لقد عادوا آمنين. ستكون أكثر حذرًا في المرة المقبلة.

بصمت وسرعة، لم ترغب في أن تركض إلى ذلك الصبي ذي المنظار.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

وفيما هم يسرعون إلى المدرسة، قطعت وردة أفكار أماني.
«أنا ورجاء لن ننتظرك غدًا إن تأخرت مثل اليوم.»
لا تتذكر أماني رجاء إلا وهي تمشي الدرب على طول الوادي عند الفجر لتنادي وردة. ثم تعبر البنتان الوادي لتأخذا الدرب أعلى دار أماني.
حاولت أماني أن تتخيل البنت النعجة وهي تصل وحدها للمدرسة.
كيف يمكنها تحمل النهار بأكمله في ذلك المبنى؟
«الناجية اليتيمة بحاجة لقنينة كل يوم...»
«لا تتصرفي مثل بنت فلاحة متخلفة»، وبختها وردة، «لا أحد يكترث بالأغنام.»
أسرعت خطوات وردة، ولم يعد بإمكانهن الحديث حتى استوى الدرب الترابي على القمة. وصلن رصيفًا إسمنتيًا أمام شقق ودورٍ صغيرة.
كلام الأخت الكبرى النشيطة لم يتوقف.
«عدلي حجابك.»
«لا تتحدثي مع الصبيان وحدك»، أضافت رجاء.
لم قالت إنها ستذهب للمدرسة؟ ما هذه الفكرة الغبية؟
«وغدًا صباحًا، احذري أين تمشين. حتى رائحتك مثل الغنم.»
«باااع.»
«حاولي أن تتكيفي مع الأمر!»
تتكيف؟ إنها راعية!
حالما وصلن باحة المدرسة، أحاطت مجموعة بنات أكبر سنًا بوردة ورجاء، وشكلن حائطًا لم تعرف أماني كيف تتسلل منه. شعرت وكأنها غنمة يتيمة، وهي تتسمع لأطراف أحاديث البنات.

«أهذه هي البنت النعجة؟»

«عندك أيبود جديد!»

«هل سيسمح لك أبوك بالتسجيل في الجامعة؟»

هذا السؤال الأخير كان موجهًا لوردة. اختلست نظرة إلى أماني قبل أن ترد همسًا.

حملقت أماني في ظهر ابنة عمها المتيبس مستغربة. كان من الصعب تخيل وردة وهي تتحدى أباها، بالنظر إلى ذلك السلوك المتزعم الذي اعتادته منها. هل تريد فعلاً الذهاب إلى الجامعة، أم أنها تحاول فقط كسب إعجاب صديقاتها؟

دروس الرياضيات والحساب الصباحية مرت ثقيلة مثل يوم حار بلا ماء. أربع عشرة بنتًا في صفها، وكن ينظرن إليها بحذر. جلست أماني في المقعد الأخير، وكانت شغوفة بالإجابة على أسئلة المعلمات. بين الحين والآخر تلتفت البنات لها ويحملقن فيها. البنت النعجة كانت تأمل في ترك انطباع طيب عنها.

في استراحة الغداء ركضت البنات خارجًا للأكل وهن يشكلن حلقة صاخبة. حائط آخر من ثلاثة عشر ظَهرًا.

«... إنها تستعرض»، همسات، عالية بما يكفي لتسمعها.

احمر خدا أماني. نعم، لقد تركت انطباعًا قويًا. ولكن بطريقة خاطئة. فات الأوان على البقاء صامتة، كما فات الأوان على التكيف. والأسوأ من ذاك، نسيت أن تأتي بزوادة الغداء. لن تستجدي وردة.

معدتها أخذت تقرقر. جوعها لتعلم الإنجليزية هو الذي أبقاها إلى العصر. حين دخلت الآنسة عبوشي الصف، جلست أماني وحدقت فيها.

لم تكن الآنسة عبوشي محجبة، وشعرها الأسود كان مربوطًا بشكل كعكة صغيرة وراء رأسها. ولكن حالما بدأت الآنسة عبوشي بالحديث، عاد لأماني ارتباكها. لم تتمكن من فهم ولو كلمة واحدة قالتها تلك المرأة الصغيرة النشيطة، باستثناء أنها لا تسمح بالحديث بالعربية في صفها.

وقفت البنات واحدة بعد الأخرى أمام الصف ليتحدثن عما فعلنه في الصيف. كان مسموحًا للبنات طرح الأسئلة. بدأت أماني تحس بشيء من الأمل. كانت تفهم ما يقلن تمامًا. كلهن يلفظن مثل أبيها، باستثناء أنهن يضحكن ويتلعثمن ويستخدمن القليل جدًا من الأفعال.

كانت الآنسة عبوشي تصحح لكل بنت، وتطلب منها تكرار كلمة أو جملة. أصغت أماني بإمعان، وكررت هامسة كل شيء قالته المعلمة. كان الأمر أشبه بحصة موسيقى مع أمها.

ثم خرجت بنت، صغر حجمها وحركاتها العصبية، ذكّر أماني بعصفور. «اسمي سعاد. أنا... أذهب...»

«ذهبتُ يا سعاد. أين ذهبت؟ استخدمي صيغة الماضي.»

«أنا ذهبت... إلى لا مكان.»

ضحكت كل البنات بودّ. تأففت سعاد.

«أنا أساعد... ساعدت أبي.»

«الصوت نهاية صيغة الماضي أقرب للتاء. هل نسيت كل شيء في الصيف؟ كرري ورائي. ساعدت»، أطلقت الآنسة عبوشي الهواء من بين شفتيها وهي تلفظ تاء مفخمة نهاية الفعل الماضي.

كررت أماني الكلمة الجديدة عدة مرات.

«بماذا ساعدته يا سعاد؟»

بحركات صغيرة وسريعة من يديها رسمت مربعًا في الهواء. ثم مثلت أنها تلف أشياءً وتضعها داخله.

«آه. هل كنت تعبئين أشياء لأبيك؟»

«أنا peck أشياء لأبي.»

ليس peck. الطيور هي التي Pack. peck»، قالت الآنسة عبوشي وهي تكرر الفعلين بهدوء وتكتبهما على السبورة. ذكّرت أماني بأمها عندما كانت تعزف نغمتين متطابقتين على البيانو وتطلب منها معرفتهما.

«الآن قوليه بصيغة الماضي ولا تنسي التاء.»

«أنا عبأت الأشياء لأبي. المستوطنون يكسرون نافذة. المستوطنون يكتبون كلمات بذيئة على دكان. لا سياح يأتون. هو أغلق... أغلق... دكان.»

مدت الآنسة عبوشي يدها وأمسكت بيد سعاد بلطف.

شعرت أماني بالأسى لها، لكن شعورها بالوحدة تراجع أيضًا. سعاد تعرف المستوطنين.

«شكرًا يا سعاد. نعم، بإمكانك الجلوس. لقد تركت تلميذتنا الجديدة للآخر. أظن أن ذلك الأمر سيكون أسهل عليها لو أنها نالت الفرصة لتتعلم منكن. أتمنى منكن جميعًا أن تكن لطيفات مع تلميذتنا الجديدة. هل تعرفن ما الذي قاله النبي، صلى الله عليه وسلم، عن اللطف؟»

ارتفع صوت الآنسة عبوشي، وكانت تلك الطريقة الوحيدة لتفهم أماني أن تلك الخطبة القصيرة انتهت بسؤال. لم تفهم الكثير من الكلمات!

تطلعت الآنسة عبوشي وبقية البنات فيها. أتى دورها لتقدم نفسها للصف. أحست وكأنها حيوان على وشك أن يذبح.

تقلصت أماني في مقعدها وهي تحدق في البلاط الأبيض والأسود على الأرض.

«تعالي. لا تخجلي. نحن kind جدًا.»

ما الذي تعنيه هذه الكلمة، kind؟ تمنت أماني لو أنها أتت بمعجمها. أحست بنفسها غبية. كلّهن ينظرن إليها. ينتظرن.

الاعتزاز بالنفس هو الذي دفع أماني لتقف على قدميها، ثم لتقف أمام الصف. لم تتمكن من النظر إليهن. هل لها رائحة؟ هل يعتقدن أنها تستعرض؟ هل سيضحكن عليها لأن لفظها سيء؟

«ابدئي باسمك.»

«أماني رحيم»، قالت بصوت هامس.

«جيد. أنت تفهمين الإنجليزية جيدًا جدًا، أليس كذلك يا أماني؟»

هزت أماني رأسها نافية ومحاولة إثناء الآنسة عبوشي عن الثناء عليها أمام الأخريات. كلهن ضحكن. نظرت أماني للأعلى، منزعجة. كل البنات كن يبتسمن، باستثناء تلك الجميلة التي اسمها داليا.

هل قالت شيئًا مضحكًا؟ أو أحمق؟

قالت الآنسة عبوشي بصوت رقيق: «أنت تفهمين الإنجليزية، أليس كذلك يا أماني؟»

«قليلاً»، وأشارت أماني بإبهامها وسبابتها المتقاربتين.

«كنت معلمة أخيك، عمر. أعرف أنك كنت تتعلمين في البيت طوال سنوات. هل تقولين لنا لماذا أتيت إلى المدرسة الثانوية؟»

كانت سريعة جدًا. حملقت أماني في الآنسة عبوشي، مرتبكة.

أبطأت الآنسة عبوشي لفظها: «لمَ أتيت إلى المدرسة اليوم؟»

الآن لم يعد بمقدور أماني العثور على الكلمات الإنجليزية بالسرعة الكافية. كل فعل غاب مختبئًا. ركزت عينيها على قطعة طباشير.

بسرعة رسمت قمة سيدو وسنام الجبل بجانبها.

«سيدو...»

«صححت الآنسة عبوشي، جدي. لا نسمح إلّا بالإنجليزية في هذه الحصة.»

«جدي... جبله. ليس الآن...»

كل الكلمات الإنجليزية كانت مختبئة في كهف عميق داخل دماغها.

رسمت أماني سياجًا يلف أسفل القمة المنبسطة. رجل بقبعة مدورة يحمل بندقية.

أومأت الآنسة عبوشي حزينة. التعبير نفسه علا محيا البنات.

«المستوطنون»، قالت الآنسة عبوشي الكلمة لها.

«المستوطنون»، كررت أماني الكلمة وهي تقلد اللفظ بإتقان كامل، «المستوطنون يأتون. سياج المستوطنين. المستوطنون يأخذون جبل جدي. أنا أحب جبل جدي.»

رسمت غنمة.

«غنمتي.»

ثم رسمت بنتًا. أشارت للغنمة، البنت، ثم لنفسها. لماذا نسيت أهم الكلمات الإنجليزية؟

«أنت راعية»، قالت الآنسة عبوشي، مبتسمة، «عمر أخبرني.»

«راعية. نعم»، أحست أماني بالسخونة في وجهها. تذكرت تنبيه ابنة عمها لها بألاّ تتحدث عن الأغنام، ولكن كيف يمكنها ألاّ تفعل؟

«أنا راعية. مستوطن قتل واحدة... غنمتي. المستوطنون يتحدثون الإنجليزية. أنا أحتاج الإنجليزية. أنا أحتاج أن أمنعهم.»

لم يضحك أحد. بل ساد الصمت في الصف. غشاوة رطبة غطت عيني سعاد، وعيني علياء. ودانة، وهنية أيضًا.

أغرقن أماني بالأسئلة. ما هي أسماء الغنمات؟ هل لديها غنمة مفضلة؟ هل لديها الوقت لأكل البوظة بعد المدرسة؟ لا؟ متى يمكنهن مقابلتها؟

في تلك الليلة، نامت أماني تغمرها سعادة لم تحس بها منذ زمن طويل. آه!! كم تعلمت في يوم واحد. ليس الإنجليزية فحسب، بل وعن غيرها من البنات، وعن وردة أيضًا.

ابتسمت أماني وهي تتخيل دهشة ابنة عمها في الصباح حينما ستشرح لها السبب في أنها جاهزة في وقت مبكر جدًا. لقد اتفقت مع زميلاتها في الصف على لقائهن قبل المدرسة. أردن أن يسمعن قصة قدوم رومانيا إلى الوادي.

[18]

في سبتمبر أصبحت ساعات النهار أقصر، فيما صارت جمل أماني بالإنجليزية أطول. قدرتها على تقليد لفظ الآنسة عبوشي أدهشت زميلاتها. وحدها داليا أبقت على مسافة غير ودية معها. وقد أسرَّت لها بقية البنات بأن داليا كانت صاحبة المرتبة الأولى في الصف. أما الآن فإن أماني هي التي أصبحت صاحبة هذه المرتبة.

حين اتصل عمر وأمها تحدثت أماني معهما بسعادة عن المدرسة وعن صديقاتها، ثم أعطت الهاتف لأبيها حين سألاها عن أخبار الوادي.

غير أنها ما كانت تستطيع تجاهل هذه الأخبار في طريقها للدار من المدرسة.

في مكان ما، بعد أن تجاوزت الرصيف، وبدأ الدرب الترابي ينزل ملتفًا على الجبل، انشق أمامها مشهد الوادي. بدأت أماني تتجرأ على النظر إلى الإسفلت وهو يمتد نزولاً في الوادي. ذات يوم رأت كومة كبيرة من الركام مرمية نهاية درب سيدو وعلى درب دار أبيها. وبدأت السيارات التي تحمل لوحات صفراء تمر مسرعة على طريق المستوطنين السريع. وعلى قمة جبل جدها شق الإسرائيليون طريقًا وحفروا حفرًا، ثم نصبوا مظلات ومقطورات. وأخذت السيارات تخرج وتدخل قبل أن تصل

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

أخيرًا حافلة كبيرة براقة الألوان. نزل منها أطفال يحملون حقائب ظهر وكأنهم عائدون من مدرسة في مكان ما.

وأخذت الأنوار البراقة على قمة سيدو توقظها في منتصف الليل. تحدق من نافذتها في سور الأسلاك الشائكة، ثم تعود وتشد البطانيات مغطية رأسها. تخيلت نفسها وهي تصعد بغنماتها إلى الفردوس وغطت في النوم.

بعد المدرسة كانت تسرح بالغنمات في كرم الزيتون وبين دوالي العنب أو على السفح فوق دارهم. وسريعًا لم يتبقَ في الوادي ولو ورقة عشبة خضراء واحدة، وأخذت الغنمات تهزل.

في كل مرة كانت تأخذ غنماتها لحوض الشرب في الحرش، كان الأمل يراودها في أن تهرب إلى الفردوس. لكن أحدهم كان واقفًا هناك فوقها وراء سياج المستوطنة على الدوام. إما أن المستوطنين يحتفظون بحارس دائم، أو أن شخصًا كان يعرف عاداتها. وأيًا كانت الحال، ما كانت لتجازف بأن يتسلل أحدهم وراءها.

كان أملها الوحيد هو أن تأخذها ليلاً.

في أول جمعة في أكتوبر، نهضت أماني قبل أذان الفجر لتعبر الوادي ركضًا. لم تتبق نجمة واحدة ظاهرة في السماء حينما وصلت بغنماتها إلى الحرش، غير أن ما أراحها هو أن السماء كانت ما تزال مظلمة بحيث لم تتمكن من رؤية أي شيء على قمة الجبل.

«يا الله!» أمرت غنماتها وهي تقف على الحائط، «إلى الفردوس.»

مرة أخرى ساق ساحم الغنمات إليها، وأطاعته لتأخذ بالقفز على الحائط، ومن ثم على بضع جلاميد قبل أن تختفي.

رفعت أماني الناجية إلى الحائط وقلبها يدق حماسًا وزحفت نحو الدرب.

نظرت خلفها مرارًا، وأحست بالسعادة حينما غاب جانب قمة سيدو عن نظرها.

وحين تمكنت من اللحاق بالقطيع وراء سنام الجمل، كانت السماء من جهة الشرق متوهجة بلون وردي. ولم تشاهد على الهضبة أثرًا لطريق أو لسور. ساقت الأغنام مباشرة نحو القمة المنحدرة المغطاة بالحجار عند الطرف البعيد، وتسلقت الدرج الحجري من الصدع إلى جانب الشرفة.

مضت أسابيع وهي تحلم بالمرج، وها هو يحبس أنفاسها ثانية حينما رأته. كان بمثابة صدمة خضراء في المكان الجاف المعزول. جالت بنظرها مرارًا على المكان قبل أن تأمر ساحم بأن يسوق الغنمات للأعلى.

لكن ساحم أبى. أخذ يحوم أسفل الدرج ويشم الأرض، ثم ركض عائدًا إلى الغنمات ونبح محذرًا.

فهمت أماني. الذئب قد عَلَّمَ منطقته.

«ساحم!» أمرته أماني بصوتها وإشارة من يدها، «تعال بالغنمات.»

لم يكن سعيدًا بالأمر، لكنه أطاع.

اندفع القطيع مباشرة إلى عين الماء، ثم رعى بنهم، والرؤوس تتمايل وهي تقضم الحشائش الطويلة والوفيرة. كان ساحم عصبيًا ويشم الهواء. وكلما ابتعدت غنمة عن القطيع كان يندفع باتجاهها وينبح عليها بشراسة، ويصرّ على أن تبقى متجمعة. ومع أن الصباح مر

بسلام، إلا أنه لم يتخلَ عن توثبه.

أخرجت أماني الطعام الذي حشرته في جيبها. لقمات شهية من الجبن المخلوطة بعصير العنب الحلو تتلذذ بها تحت أسنانها. جلست على الشرفة تمتع نفسها بكل ثانية تقضيها هنا.

سيدو فعل هذا. عاش في هذا المكان الجميل. لقد شارك الذئب في المكان. كانت أفكارها تعود للذئب طوال اليوم. في المدرسة قرأت كتب الآنسة عبوشي عن الحيوانات المهددة بالانقراض. الذئب الذي رأته يشبه ذئبًا من الفصيلة الإيرانية. وما أدهشها هو اكتشافها أن وجهة نظر سيدو تتكرر في كل كتاب. الذئاب في البرية لا تفترس البشر. بل العكس، إنها تتخلى عن فريستها لتجنب الاقتراب من المخلوقات التي تمشي على ساقين والتي طردتها من أراضيها وصادتها حتى كادت توصلها حد الانقراض.

حين اقترب العصر من نهايته، أشارت أماني لساحم على مضض ليسوق الغنمات أسفل الدرج.

غير أن شيئًا تحرك في مجال نظرها.

قابعًا على كفليه فوق المرج، شاهد الذئب غنماتها. كان قريبًا على نحو أخافها. خط من الدم الأحمر على خطمه (13) هو الذي ساعد أماني لتراه وهو يقبع مموهًا بين الصخور.

مشت أماني ببطء راجعة نحو الفتحة على جانب الشرفة. كان يتابعها بعينيه الصفراوين.

خائفة، ساقت أماني قطيعها نزولاً على الدرج الحجري، ثم قفلت راجعة به إلى الدار.

---

(13) الخطم هو مجموع فم وأنف الحيوان.

[19]

بعد العشاء كان العم هاني يساوم أحد الأشخاص على الهاتف. لثلاثة أيام بقي محصول العنب في صناديقه على ظهر الشاحنة. لم يكن هناك من يريد أن يشتريه في المدينة. والحواجز العسكرية الإسرائيلية تمنعهم من نقله لأسواق أخرى. ولو بقي في مكانه يومًا آخر فسيتلف. قال العم هاني مبتسمًا: «مع السلامة.» وأخبرهم. أن معمل العصير في المدينة مستعد لشراء كل حبة من العنب لو تمكنوا من أخذها الليلة.

«من يريد أن يذهب؟»

لدقائق أحست أماني بالفرحة مثل الأطفال. لا شيء يفرح العائلة بأكملها مثل أخذ المحصول إلى الخليل. تسلقت بشوق مع وردة إلى فسحة على ظهر الشاحنة. رائحة العنب - التي كانت شديدة الحلاوة قبل العشاء - أصبحت الآن تشبه رائحة الأمل.

«لمَ نسمح لهم بأن يتحكموا في حياتنا؟»

توترت أماني. جدال كان يدور بين والدها وعمها على الدرب المظلم.

«أنت تعلم بأن القانون لا يسمح للفلسطينيين بأن يستخدموا طرقهم السريعة. كل ما يحتاجونه هو نظرة على لوحة السيارة. إذا ما أوقفونا..»

«سيمنعوننا من التنفس لو استطاعوا. العنب ناضج كثيرًا، وإذا ما أخذنا طريق جهنم فسيتجرح قشره.»

قال الأب بصوت هادئ محاولاً إقناعه: «سنسير ببطء. سيشترونه...»

كان يتمتم. صوته أخفض من أن تسمعه بوضوح. ثم صاح العم هاني: «اطلع! لا تخف، لن أسوق على طريقهم الملعون. انتهى.»

دار المحرك وانطلقت السيارة تئن على طريق القرية.

بعد القرية، انعطفت السيارة يسارًا، وبدأت تقفز. كانوا على طريق الجرارات. خفّت سرعة السيارة، ثم انعطفت بحدة. توقف القفز؛ فقد أصبحوا على طريق ممهد. ومثلما فعلت وردة قبالتها، انحنت أماني خارج صندوق الشاحنة لترى أين صاروا.

كان العم هاني يسوق على كتف الطريق السريع. في أي لحظة يفترض أن يقطع الطريق نحو الجانب الآخر ليأخذ الدرب فوق التلال. قبضت أماني على طرف الصندوق ومالت أكثر لتنظر من جانب الشاحنة. المكان كله مظلم. لقد أطفأ العم هاني المصابيح الأمامية.

انقبضت معدة أماني من الخوف. هل ينوي أن يبقى على كتف طريق المستوطنين السريع؟ إلى متى؟

كان العم يسرع على الطريق ويتنقل بين تروس السرعة، والأصوات تعلو وتنخفض داخل السيارة، وصوت المحرك المثقل يطغى على صوت الجدال. الانحدار كان خفيفًا غير أنه متواصل. لم تمر بهم أي سيارة. إن بقي العم هاني على الطريق السريع فسيصلون إلى البوابة القديمة للمدينة المغلقة أمام سيارات الفلسطينيين. هل يظن أن بمقدورهم التوقف وإفراغ العنب هكذا دون أن ينتبه إليهم أحد؟

لمحت أماني إلى اليسار منها المستوطنة الكبيرة فوق الوادي، حيث الأضواء والسطوح المبلّطة بالبرتقالي بين الأشجار الخضراء. ثم -هووف!- انعطفت الشاحنة بحدة إلى اليسار. أصبحت الإطارات على أرض أكثر نعومة مما سبق. إنه الطريق السريع. بقيت تنعطف بحدة حتى قفزت من على الطريق السريع، وعادت الإطارات إلى كتف الطريق المفروش بالحصى، وبدأت تنزل التلة.

لقد استدار العم هاني.

نظرت أماني في الطريق السريع المظلم وراءهم. مصابيح سيارات تسرع نحوهم- واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة أزواج من العيون المتوهجة، تكبر، تقترب بسرعة.

غاصت أحشاء أماني. أربع سيارات جيب عسكرية اقتربت، مرت بهم، كلها محملة بالجنود. ضغط العم هاني الفرامل فجأة فوقعت أماني. توقفت الجيب الخامسة وراءهم، تسلط مصابيحها الأمامية على صندوق الشاحنة.

ظهر صف من الجنود، بنادقهم مشهرة عليهم. تخيلت أماني صفًا آخر أمام الشاحنة من حيث سمعوا الأوامر بالعربية.

«أنت! السائق! اخرج!»

سمعَت صرير باب السائق فيما كان عمها يخرج.

بجانبها، تأففت وردة واستدارت لترى ما الذي يحدث. لقد أخبرهم الأب ألف مرة ألا يتحركوا إذا ما رأوا البنادق مشهرة نحوهم. أمسكت أماني بذراع وردة.

«ارفع يديك. الهوية.»

أتى صوت العم هاني متحديًا: «وكيف أعطيك أوراقي بيدي المرفوعتين؟»

أصوات بالعبرية. صفقة، مثل صوت شيء صلب على اللحم. أنين. «ماذا في الشاحنة؟»

صوت العم بدا أكثر تحديًا: «عائلتي. نأخذ العنب لمعمل العصير في الخليل. ممنوع صنع العصير؟»

كلمات بالعبرية. صوت خطوات صف الجنود في الخلف أقرب. فوهة بندقية اقتربت من ابنة عمها، وأخرى نحو أماني، كادت تبول. لم تتمكن من رؤية الوجه الذي خلفها. صعد جندي آخر وسلط المشعل القوي على وجهيهما والصناديق. صعد آخر للشاحنة وأمسك بصندوق العنب العلوي ليناوله للأيدي المنتظرة. ثم قفز الجنديان للأسفل. أفرغوا الصندوق على الطريق. تناثرت حبات العنب، وتدحرجت في كل الاتجاهات.

المزيد من العبرية.

تراجعت فوهات البنادق، وتراجع الجنود.

عاد الذي يستجوب العم هاني ليتحدث ثانية: «لا تحمل ترخيصًا لتسوق السيارة على هذا الطريق.»

«لم نكن نسوق على الطريق السريع.»

صفقة أخرى، وأنين آخر.

خافت أماني وهي ترى عمها يتعرض للهجوم، ندمت على كل لحظة سبق وأن تمنت فيها ألّا يكون هو من يدير شؤون العائلة. إنهم بحاجة لقوته وشراسته.

«أنت تخالف القانون. هذه منطقة أمنية. لا يسمح بوجود الفلسطينيين فيها.»

«هذا احتلال غير قانوني. هذه أرض عربية.»

«هذا طريق إسرائيلي. أنت..»

ورن هاتف محمول. المزيد من العبرية.

«أنت. يداك وراء ظهرك.»

المزيد من العبرية. أصوات عراك. أنَّ العم هاني.

نهضت العمة فاطمة نحو طرف صندوق الشاحنة، وهي تصرخ: «ما الذي تفعلونه بزوجي؟ هاني؟»

شاركتها وردة: «أبي!»

سألت ستي محتارة: «ما الذي يحدث لهاني؟ ليخبرني أحدكم بما يحدث.»

أحست أماني بابنة عمها ترتجف بعنف وأحاطتها بذراعها. وقبل أن تجيب ستي، سمعوا صوتًا رهيبًا يشبه صوت جر شيء على الأرض. جنديان مشيا وراء الشاحنة نحو مصابيح السيارة وهما يسحبان العم خائر القوى من إبطيه. قيد بلاستيكي أبيض يحيط بمعصميه وراء ظهره، وكيس يغطي رأسه المائل.

اختفى بسرعة مثلما ظهر، مسحوبًا خارج بقعة الضوء. كل ما رأته أماني هو نعلا حذائه المتقافزان على أرض الطريق، والعنب يرمى بعنف على أحد الجانبين، ثم لا شيء.

صفقة باب الجيب أخافتها. صرخت العمة فاطمة ووردة على الجنود ليتركوه. أما أماني فبقيت صامتة تركز على الأصوات في الخارج.

«يا الله!» صاح جندي: «لا يسمح بسيارات العرب هنا. عودوا لداركم.»
استدار بقية الجنود ومضوا. وعلا صوت سيارات الجيب لتصغر بقع الضوء أمامها على الطريق السريع.
ركض أبوها وراءهم وهو يلوح بقبضتيه في الهواء، ويصرخ بشتائم لم يسبق أن سمعته أماني يقولها.
حين عادوا للدار، أخبرهم الأب مرة بعد أخرى بأن الجنود سيأخذون العم هاني إلى السجن في المستوطنة الكبيرة. وأنه سيذهب مع طلوع الصبح ليبحث عن أخيه. ثم أخرج هاتفه المحمول وبدأ يجري الاتصالات وهو يذرع الحديقة جيئة وذهابًا. ساعدت أماني وردة في مد خمس فرشات لينامو. كان الأب قد أوقف الشاحنة بجانب المصطبة ورائحة العنب كانت حلوة لدرجة تصيب بالغثيان. أرادت أماني أن تطلب من والدها إبعادها لكنها لم يسبق لها أن شاهدته مهتاجًا على نحو ما هو عليه. كان يشعل السيجارة تلو الأخرى، ويلعن بين كل مكالمة وأخرى. وكلما رأت ستي العمة فاطمة أو وردة تبكي أو تتحدث عن العم هاني، كانت تسأل عما به وتريد من يخبرها بالأمر ثانية. وأخيرًا احتدت العمة فاطمة على ستي: «لا تعيدي السؤال! نامي. صار وقت النوم.»
كانت تلك أسوأ ليلة عاشتها أماني في حياتها. نامت لما بعد أذان الفجر، ولم تستيقظ حتى هزتها وردة.

[20]

لقد تأخرتا على المدرسة.

«إن الله مع الصابرين»، كانت ستي تقولها طوال تلك الساعات الطويلة والأيام المرهقة والأسابيع الثقيلة التي كانوا ينتظرون فيها أخبارًا عن العم هاني.

غير أن أماني وجدت في قرارة نفسها أن الصبر إنما يأتي لأولئك القادرين على النسيان.

في المدرسة لم تتمكن أماني من النسيان. كل من صديقاتها لها أب أو عم أو ابن عم أو أخ أمضى شهورًا، وربما سنوات، في سجون الإسرائيليين. وسمعت أماني قصصهن عن الضرب والإهانة والاعتقال دون محاكمة. إنهن يكرهن الإسرائيليين وسجونهم.

شيء قاسٍ استقر في قلب أماني. فكلما ارتفع الأذان في الوادي، تذكرت سيدو الذي كان يصلي وقد أفرغ قلبه من الغضب.

إن أنقذ الله عمها ستسامحه من قلبها وتعود للصلاة.

الاتصالات الهاتفية مع أمها أصبحت مشوبة بالتوتر. والدها لم يرغب في أن يشغل بالها بما حدث. أماني أرادت أن تقول لها ارجعي للبيت يا أمي؛ فنحن نحتاجك أكثر مما تحتاجك أمك. لا. لم تتمكن من أن

تقول لوالدتها كم تتمنى أن تموت ستي الموسيقية.
بعد غياب عمها هاني، أصبح الأب يكرر زياراته للسجن في المستوطنة الكبيرة. كانت أماني تعرف في كل مرة يقابل فيها جنودًا أو مستوطنين إسرائيليين. تعود من المدرسة فتجده في الدار، ينظر في كتاب أو يدخن سيجارة بعد أخرى. لكنه لا يقلب صفحة واحدة.
تطلب الأمر أسبوعًا ليعرفوا أنهم أخذوا العم هاني إلى سجن في النقب. لم يكن هناك أمل في تقديمه للمحاكمة.
قالت له أماني غاضبة: «لقد قلتَ إننا نستطيع أن نخوض معاركنا في المحاكم. ما النفع في ذلك؟ ألم يكن من الأفضل أن تراه وهو يقاتل؟»
تلك النظرة على وجه أبيها جعلتها تصمت.
«لا، ليس من حقهم أن يأخذوا أرضنا أو هاني دون محاكمة. أنا أؤمن بالوسائل غير العنيفة، حتى الآن.»
لكن محياه بدأ شيئًا فشيئًا يكتسي مسحة تشبه الخبز القديم اليابس. كم أصبح بحاجة لزوجته! كانت تشبه الزبيب للعائلة. مجعد نعم، لكنه يقطر حلاوة.
لم تتذكر أماني متى بدأت العمة فاطمة تلازم الفراش، أو متى بدأت أختها إصلاح تأتي لزيارتهم من القرية. ساعدت إصلاحُ فاطمةَ في النهوض من الفراش، وألبستها وأجلستها في بقعة مشمسة في حديقة ورودها، فيما كانت وردة ورجاء تنظفان أرض الدار أو تجليان المواعين أو تغسلان الملابس وتحضران العشاء.
كانت إصلاح تمسك بيد فاطمة وتحكي لها قصصًا من طفولتيهما معًا، «أتذكرين ماذا كان يقول أبي؟ شجرة الزيتون تبقى حية طوال

شهور الصيف الطويلة دون ماء؛ لأنها تضرب بجذورها عميقًا في الأرض. ينبغي أن نكون مثل أشجار زيتوننا.»

وحين اتصلت الأم تلك الليلة كان عندها خبر حزين. ستي الموسيقية توقفت عن الأكل ودخلت في غيبوبة.

«الإسرائيليون أخذوا العم هاني. هو الآن في السجن»، انفجرت أماني. نظر إليها والدها، لكن أماني لم تتمكن من التوقف، «العمة فاطمة مريضة. إصلاح تأتي كل يوم لتأخذها من الفراش. لا أحد يعرف ما بها. بابا يدخن طوال الوقت...»

أخذ أبوها الهاتف، ومضى به مبتعدًا. رأته أماني يروح ويجيء ويشير بيديه وهو يكلم أمها.

وبخها بعد أن أغلق الهاتف، لكنها لم تعتذر. أسعدها أن أمها عرفت؛ فهم يحتاجون إليها في الدار.

قال لها مع السلامة. فوجئت أماني أنه كان مبتسمًا، «المرأة هي أفضل من يفهم المرأة. ربما يكون هذا هو الشيء الصحيح لمساعدة فاطمة.»

في اليوم التالي أخذ معه فاطمة إلى السجن. قالت الأم إن فاطمة هي من ينبغي أن تبحث عن زوجها، وعليها أن تتوقف عن الشعور بالعجز.

وقد نفع الأمر. فالعمة فاطمة لم ترجع إلى الدار لتبدأ في إعداد الغداء فحسب، بل أتت معها أيضًا بخبر رائع. سيطلقون سراح هاني، ولن يمضي أسبوع إلا ويعود للدار.

أخذت أماني غنماتها إلى الحرش. قلبها وخطواتها عادت خفيفة. غياب عمها عنهم في السجن كان مروِّعًا. حتى لو كان طاغية فقد كان يحافظ على العائلة قوية. إنهم بحاجة إليه بينهم.

منذ ذلك اليوم الذي أمضته في المرج وهي تفكر بمخاطر العودة إليه. لقد عاش سيدو شتاء بأكمله هناك. أهي شجاعة مثل سيدو؟ وحين ملأت حوض الشرب ونظرت لتشاهد إن كان هناك من يقف وراء سياج المستوطنين، أجّلت القرار ليوم آخر. تجمعت الغنمات حولها تثغو جائعة. إنهن يتذكرن الدرب نحو الكلأ، وهي تتذكر عينين صفراوين تتبعان غنماتها.

لكنها ساقت قطيعها نزولاً بين أشجار الزيتون، إلى طريق القرية المسدود بكومة ركام كبيرة عند طريق المستوطنين السريع. لم يعد أحد من أهل القرية يذهب إلى هناك. شعرت بالعصبية وهي تسرح بالغنمات وحدها، كلما مرت بها سيارة إسرائيلية مسرعة. لكن بهائمها وجدت شيئًا تقضمه، وكن يمضين أبعد كل يوم، جنوبًا على كتف الطريق السريع.

انقضى أكتوبر وأتى نوفمبر. في كندا، ماتت ستي الموسيقية ودفنوها. والأم تحزم حقائبها لتعود. بقيت أربع وعشرون ساعة فقط ليرجع العم هاني إلى الدار. عادت العمة فاطمة إلى عاداتها السابقة، تشتل شجيرات الورود، وتخبز الكعك باللوز الذي يحبه العم هاني، وتعتني بدارها ودار ستي.

بعد العشاء شربوا الشاي الحلو على المصطبة، والتفتت العمة فاطمة إلى الأب باعتباره رب العائلة.

«أي لحم تريدون أن نطبخ غدًا؟ أرغب في دعوة بيت أختي إلى عزومة.»

توترت أماني. لا يحب عمها هاني شيئًا مثل لحم الغنم.

«سأذبح لكم بعض الدجاجات.»

«ماذا لو كانوا ضربوه؟»

«حينها سنرعاه.»

«كيف ستأتي به إلى البيت؟ لن يكون معه مال لسيارة الأجرة. ولا تستطيع الدخول بالشاحنة عبر بواباتهم.»

أشعل الأب سيجارة: «سآخذ حمارين في الصباح وأرجع به إلى الدار.»

في اليوم التالي أتت أماني ببعض الحليب إلى باب المطبخ. وجلست ستي بجانب التنور، تعلو محياها تكشيرة لا أسنان فيها.

«أماني!»

«ستي؟ تتذكرين اسمي. تعرفين من سيأتي للدار اليوم؟»

سكتت ستي قليلاً، وأدارت برأسها إلى المطبخ.

«أخي، هاني، سيأتي للدار.»

ظهر الأب على الباب، يكاد ينفجر من الضحك.

«إنه ابنك يا أمي»، قال ضاحكًا، «إنه أخي أنا. لكن ليست مشكلة. هو هاني! هاني راجع للدار. وزوجتي أيضًا! أمك»، قال وهو يبتسم لأماني.

«فكري بالشجارات التي سنعود إليها!»

«أين زوجتك؟» سألت ستي.

«في كندا.»

«كانت تنتظر أن تموت ستي»، أضافت أماني.

«أموت؟ ومن قال إني سأموت؟»

«لست أنت يا أمي»، قال أبوها، «إنها أم زوجتي. روز، زوجتي، ستعود للدار بعد أيام»، قال وهو يجلس على الكرسي بجانبها: «حان الوقت

لأعلمك كيف تخبزين أفضل خبز في فلسطين.»

«عليك أن تأكل الخبز الذي تخبزه»، قالت أماني ضاحكة وهي تعطيه كرة عجين، «سترجع للدار في الوقت المناسب لقطف الزيتون، أليس كذلك؟»

أومأ أبوها موافقًا. كانت يداه تخبطان كرة العجين البيضاء.

تركتهما أماني وهما يمازحان بعضهما البعض ومشت وراء وردة ورجاء إلى المدرسة.

عند العصر، أخذت الغنمات لتسرح بها على جانب الطريق السريع. لم تعد تستطيع رؤية دار جدها. وتساءلت إلى أين يمكنها أن تتقدم بها.

مرت بها شاحنة صغيرة تحمل بضعة رجال على الجانب الآخر من الطريق. لوحوا لها بقبضاتهم وصاحوا بها: «كلبة عربية!»

شيء ما في تلك الشتيمة، وفي ضحكات الرجال، أقلق أماني وجعلها تتوقف. راقبت الشاحنة لدقائق طويلة، ثم أطول، حتى انتبهت إلى أن الشاحنة تبطئ. لم تكن هناك سيارات أخرى على الطريق. لا أحد في أي مكان.

ركضت بالغنمات بأسرع ما يمكنها راجعة نحو طريق القرية. لأول مرة شعرت بالسعادة لأنه مسدود. وشاهدت أمامها طرف كرم العنب ومدرجات الزيتون بجانب دار سيدو.

نظرت خلفها. رأت الشاحنة تمضي مسرعة، فاتكأت على عصاها وبكت بارتياح.

ما الذي دار برأسها، أن تأخذ غنماتها في ذلك الاتجاه وحدها؟ كان الأمر خطرًا. كان عمها هاني محقًا في الكثير مما قاله.

رائحة لذيذة أثارت شهيتها فجأة. العمة فاطمة وإصلاح كانتا تشويان الدجاجات خارج الدار. وهرعت أماني إلى مطبخ ستي للمساعدة. حملت قدور الأرز والخضار إلى المصطبة، وسمعت أصوات الحوافر تدق طريق القرية. بدأت الشمس تميل للغروب، وسيحل الليل قريبًا.

نادتهم العمة فاطمة: «اللحم جاهز!»

مدوا صحف الدجاج الطري على الطبلية وسط المصطبة. وأخذوا على مهلهم يرتبون الوسائد ويوقدون عدة فوانيس كاز.

«أشعر بالبرد»، قالت ستي مشتكية، «لمَ نأكل في الخارج هنا؟»

كان عذرًا وجيهًا لنقل كل شيء للداخل إلى الصالة. كان المكان يضيق بالكنبتين والتلفاز، لكنهم حشروا أنفسهم، بعضهم بجوار بعض، وأخذوا يسلون أنفسهم، يأتون بالكراسي، ويتصنعون الصبر.

برد الطعام، وكذلك حماسهم. وأصبحت أحاديثهم مشوبة بالقلق والحدة.

عريب، أخت إصلاح الصغرى، تأففت: «أنا جائعة. لا أريد أن أنتظر.»

«كفى!» صاحت العمة فاطمة، والتفتت إلى إصلاح: «أسكتيها.»

اندست البنت ذات الأربع سنوات في حضن أختها لتبكي. وبكت العمة فاطمة، بينما لفت وردة أمها بذراعيها.

أعادت أماني ترتيب المائدة.

سمى أبو نادر، بسم الله وأومأ لهم بأن يبدؤوا.

«سنأكل على مهلنا ونترك لهما الكثير. هذا سيجعلهما يصلان أسرع.»

سألت ستي: «من الذي سيأتي؟»

همست إصلاح: «ابناك.»

طقَّ الباب وهو يفتح. لم تسمع أماني صوت الحمار من بكاء عريب. ودخل هواء بارد مع أبيها الذي وقف في المدخل، وكان وجهه وكتفاه متهدلان من التعب.

«أنا آسف»، قال مستعيدًا همته وهو يلتحق بالمائدة ومجموعة الوجوه الراجية، «لقد جعلوني أنتظر طوال اليوم قبل أن يقول لي أحدهم إنهم لن يطلقوا سراحه. لم يذكروا سببًا. لا أمل في خروجه قبل نهاية رمضان. لن يعطونا أي موعد لخروجه طوال شهر أو اثنين.»

نقرت أماني من الطعام البارد نقرًا وهي تتساءل عما يأكله عمها. أو لا يأكله.

[21]

تلاطم المطر على نافذة الصف. راقبت أماني قطرات المطر وهي ترسم بقعًا عشوائية ترتطم بالزجاج ثم تسيل.

غدًا هو آخر أيام المدرسة قبل إجازة قطف الزيتون. إن أتت طائرة الأم في موعدها فلا بد وأن تكون قد هبطت في الأردن الآن. نظرت أماني في الساعة. ربما تكون أمها الآن قد عبرت الحدود وجسر اللنبي وفي طريقها نحو رام الله.

«قريبًا سيحل شهر رمضان»، قالت الآنسة عبوشي، «سأعلمكن ألعابًا وأغانيَ بالإنجليزية.»

تصاعدت أصوات البنات موافقة.

«وستكتبن قصائد.»

تأففن.

ضحكت الآنسة عبوشي، «طيب، ما رأيكن؟ سأريكن لعبة. ثم تكتبن قصيدة.»

وافقن.

«هذه اللعبة هي لعبة ورق سهلة اسمها "روح صيد السمك".» أمسكت مجموعة أوراق ووزعت بعضها ليرين أن فيها صورًا لحيوانات مختلفة.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«يجب أن تتعلمن أسماءها بالإنجليزية حتى يمكننا أن نلعبها غدًا.»

أعطتهن الآنسة عبوشي قائمتين وطلبت منهن تكرار الأسماء وراءها.

ثم شرحت لهن قواعد اللعبة.

«هل نلعب؟»

«قلت إني سأريكن اللعبة. الليلة يجب أن تحفظن الأسماء في البيت. وغدًا يمكننا أن نلعب. أما الآن فهو وقت كتابة القصيدة.»

مزيد من التأفف.

«القصيدة يمكن أن تكون تلاعبًا بكلمة واحدة. أريدكن أن تبدأن بكلمة تخصكن أو قريبة منكن. مثلاً... انظرن للخارج.»

كتبت على السبورة الكلمة الإنجليزية: هطول.

«هل تعرف إحداكن معنى كلمة هـ- طو- ل؟»

أماني كانت تعرف، لكنها بقيت صامتة.

«هـ- طو- ل. لا أحد يعرف؟ الهطول يعني كل أشكال الماء الذي يسقط من السماء.»

«مثل المطر؟» سألت سعاد.

«نعم. جيد. سأكتب كل كلماتكن. ماذا أيضًا؟»

«ثلج.»

«بَرَد.»

«الآن العبوا بهذه الكلمة. ما الشيء التالي الذي يمكنها أن تثيره في أذهانكن؟ أي شيء!»

«مظلة.»

«حليب ساخن.»

«أحذية حمراء عالية.»

«لقد أتيتن بالفكرة. سبق وأن درسنا بعض قصائد الرومي (14). أريدكن أن تبدأن بأسمائكن، وتتركن أي كلمات أو صور تخطر ببالكن تتبعها. في رمضان ستحفظن قصائدكن غيبًا لقراءتها أمام الصف.»

فكرت أماني بقصة مولدها. وسرعان ما أتتها القصيدة.

اسمي أماني، ويعني الأمنيات
لكن عندي واحدة ليس غيرها.
في ليلة مولدي
لأمي قال جدي
صعود الجبل
ييسر الولادة.
صعدَتْ على درب الغنمات
إلى القمة أعلى الدار.
نزلتُ من جسمها، حرةً
مثل قطرات المطر في السماء.
اسمي أماني، ويعني الأمنيات
لكن عندي واحدة ليس غيرها.
دمائي ممزوجة
بتراب أرضنا
ولن أرحل أبدًا.

كتابة القصيدة بعثت الارتياح في نفس أماني. وفي درب العودة إلى

(14) جلال الدين الرومي، شاعر صوفي من القرن الثالث عشر الميلادي.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

الدار سمعت أذان العصر، وصوت سيدو، امسحي الغضب من قلبك.
«لا أستطيع»، أجابت. ورفعت يديها للسماء مثل شجرة زيتون، سائلة المطر أن يغسل منها ما يستطيع.
على الجانب الآخر من الطريق السريع ظهرت لها دار سيدو مظلمة وهادئة على نحو مريب. وقف والدها على المصطبة ولوح لها، فركضت نحوه.
أشعل سيجارة وقال لها إنه عاد عند الظهر ليجد الدار فارغة، وستي غير موجودة. كانت فاطمة داخل الدار في فراشها، لكنها تدير ظهرها لكل العالم، وغير قادرة على النهوض. ثم عثر على أمه تتجول على طريق الضيعة، تائهة مرتجفة.
«أخذت ستي إلى بيت إصلاح في القرية. ثم رجعت إلى الدار لأرى فاطمة. إصلاح ستكون أقدر على تدبر أمورهم إن كانوا معها في القرية. أمي كانت سعيدة جدًا بوجود أطفال صغار حولها.»
حملق الأب في الوادي. كانت وردة تعبر الطريق السريع تحت مظلتها.
«سيسعدهم أن يكونوا في القرية»، قالت أماني: «أما أنا فلا. لا أريد أن يظن المستوطنون أننا هجرنا دورنا. وكيف سأتمكن من رعي الغنمات؟»
أومأ الأب موافقًا: «سآخذ وردة إلى القرية وأعود بعشاء إلى دارنا. لقد تأخرت طائرة أمك. ستتصل غدًا.»
في حظيرة الغنم دست أماني نفسها في معطف جدها البلاستيكي الذي غطى كل جسدها حتى رأسها. تحول المطر الغزير إلى رذاذ خفيف. وأخذت الغنمات في الحرش تثغو متلهفة للمرج. كانت الرؤية صعبة

تحت المطر. اليوم ستجازف بالذهاب.

كان صعود الدرب المنحدر والزلق على السفح وحوله صعبًا. رفعت أماني المعطف البلاستيكي لترى الأرض وتعرف أين تضع أقدامها.

وراء سنام الجمل، أصابها اختلاف منظر الهضبة في المطر بالصدمة، فقد بدت مهجورة موحشة. كيف أمضى سيدو شتاءً بأكمله هنا؟ أين هي تلك القمم أو الغيوم الماطرة وراء ستارة المطر؟

تباطأت خطوات أماني. الضياع هنا سيكون شيئًا خطرًا؛ فليس معها بطانية، ولا طعام، ولا كبريت، ولا سكين. وراءها، سرعان ما أخفى المطر سنام الجمل.

نبح ساحم وركض متقدمًا بثقة. إنه يعرف الطريق. ومع ذلك، شعرت أماني بالارتياح حين رأت كومة جلاميد الصخر على السفح الحجري.

عاش سيدو في الفردوس مع الذئب. فلِمَ تعجز هي عن ذلك؟

انطلقت الغنمات للأمام مدفوعة بحاجتيها: الماء والكلأ. كان الصوف على ظهورها يحميها من المطر البارد.

قرفصت أماني تحت المعطف وهي ترفع وتخفض أصابع قدميها في حذائها. ومشت جيئة وذهابًا عبر المرج لتدفئ نفسها وهي تواصل مراقبة السفوح.

هل سيطل الذئب؟ هل سيكون جائعًا؟ إنها تختار الأغنام الضعيفة أو الهرمة أو القاصية.

بدت لها حجارة عالية فوق المرج وكأنها تتحرك. جف حلق أماني، ونبح ساحم على الغنمات، وأسرع بسوقها خارج المرج.

أطل ذئب راكضًا من جوف المطر رافعًا رأسه. ثم أبطأ وهو يقترب من

حافة المرج. رأت تردده. فهل رآها؟

صاحت به: «لن يمكنك أخذ واحدة.»

انتصب ذيله، وكذلك أذناه. أخذ ينظر إليها متوثبًا. بقيت أماني جامدة تمامًا في مكانها دون حراك. كانت مخالبه كبيرة، وفروه ازداد كثافة. يتقاطر المطر منه، دون أن يلحظه أحد.

فجأة حوّل نظره إلى الدرج الحجري، وتهدلت أذناه. وفغر شفتيه ليكشف عن أنيابه. ثم استقام ذيله وراءه.

استدارت أماني فلم ترَ شيئًا على الدرج. ثم عادت والتفتت إليه. رأت الذئب يركض مبتعدًا إلى أعلى السفح، واثق الأقدام ممشوق الجسد، دون أن تلامس كواحله الأرض. كان يركض بسرعة لا تستطيع أماني أن تتخيلها، ثم غاب في المطر.

شيء ما أخافه.

رفعت أماني عصاها لتحمي نفسها، وتقدمت ببطء نحو الفتحة بين الصخرتين.

أسفل منها، كان الدرج الحجري خاويًا. وتحته كان ساحم يحرس الغنمات.

هناك، في الجانب الآخر من الهضبة، رأته. في الوقت المناسب.

بالكاد لمحته، مخلوق على ساقين بسروال جينز كان يتحرك مسرعًا، قبل أن يختفي في المطر، مثلما فعل الذئب.

كان ابن المستوطن يركض هاربًا. لكن مِمَّ؟

محتارة، أمرت ساحم أن يبدأ بسوق الغنمات إلى الدار. وفيما تنزل الدرج الحجري الزلق، وضعت أماني يدًا على الصخور لتثبت نفسها.

شاهدت شيئًا صغيرًا أبيضَ محشورًا تحت الحافة، وانحنت للأمام لتطاله بيدها. اتسعت عيناها من المفاجأة.

أزهار الخلة البرية التي وقعت من يدها قبل شهرين، ها هي مجففة بعناية، ومعقودة مع أوراق حشائش طويلة على شكل قوس، وموضوعة داخل كيس بلاستيكي شفاف، ومحشورة تحت حافة الصخور الناتئة لتبقى جافة.

لقد أحضر لها ابن المستوطن هدية.

[22]

طالما قال لها سيدو إن المطر هو الطريقة التي يغسل بها الله الزيتون ليصير قطفه أسهل.

توقفت الدراسة بضعة أيام لتمكين التلاميذ من الاحتفال بموسم الزيتون. ركضت أماني إلى الدار على أمل أن يكون عمر وأمها قد وصلا حينما كانت في المدرسة. الليلة الماضية اتصلت الأم لتقول إن الطابور لعبور الحدود كان طويلاً بشكل غير معقول. تعين عليها أن تعود إلى عمان.

دفعت أماني باب الدار الجانبي وهي ترتعد وتلهث فوجدت الدار هادئة. مرت بجانب طاولة أبيها التي كانت ما تزال فارغة، ثم إلى غرفتها لترتدي ملابس جافة. الحدود الإسرائيلية هي وحدها التي تفصلها عن أمها الآن، وليس المحيطات. «هانت»، قالت في نفسها. قريبًا سيكونان في الدار.

حين وصلت حظيرة الأغنام كانت الشمس قد غابت. ومع ذلك، وضعت كبريتًا وسكينًا والمعطف البلاستيكي في حقيبة ظهر صغيرة قبل أن تفتح الباب لإخراج الغنمات. وفي الحرش لم تكترث بالنظر وراءها لترى إن كان هناك من يراقب من وراء السياج. إن كان هناك من هو

واقف في المكان، فسيكون ذلك الصبي. بعد يوم أمس، قررت أن لا تقلق منه.

صعدت الدرج الحجري لتلمح من فورها الذئب عاليًا فوق المرج. ترددت.

مرت الأغنام عطشى بجانبها نحو العين. وشمّ ساحم الهواء. عيناه أيضًا وقعتا على الذئب وركض نحو الغنمات ينبح بشراسة.

قبع الذئب مادًا جسده على الأرض مثل أبي الهول وهو يراقبهم بإمعان. ترقبت. فكرت بالموقف. إنه لم يقترب منهم. كان وحده. وغنماتها كانت جائعة.

مدت أماني يدها بالعصا وكأنها تفتح البوابة، وسمحت لغنماتها بأن تندفع فوق المرج. ثم مر بها ساحم راكضًا. لا. لن يسمح لها بالذهاب إلى الجانب الآخر من المرج. يجب عليهما أن يبقيا معًا.

مدت أماني المعطف البلاستيكي على صخرة واتكأت عليها. كانت الغنمات تقضم بنهم وتملأ بطونها.

مر الوقت. ساعة ربما.

في اللحظة التي اعتقدت فيها أماني أن الذئب قد غفا بدأ يتحرك. لقد شم أو رأى شيئًا لم تره هي. وركض صاعدًا التلة ثم اختفى.

ركضت أماني بجانب الغنمات نحو الدرج الحجري، وصيحة غاضبة تملأ حلقها.

سمعت صوت كشط من الأسفل، من النتوء الحجري على يسارها.

قفزت أماني للأسفل لتكون على مستوى النتوء. كان الصبي يقف ملتصقًا بالجدار وكأنه يريد أن يكون جزءًا من الشرفة الصخرية.

بدا أصغر سنًا من أخيها عمر، لكنه أكبر منها. شعره الطويل جعل من الصعب تمييز وجهه. والبثور الحمراء كانت تخفي وسامة وجهه. ومنظار أسود في إحدى يديه وكأنه سلاح، مثلما كانت هي تمسك بعصاها. عيناه كانتا قلقتين.

«أتيت لأراقب الذئب، لم آتِ لأوذيك.»

لكنته الإنجليزية تشبه تمامًا الآنسة عبوشي. وتذكرت أماني الأزهار، وكيف ركض هاربًا بالأمس.

مع ذلك، ليس من شأنه أن يتبعها إلى الفردوس.

وعملت دائرتين بيديها ووضعتهما على عينيها، قبل أن تشير إلى المنظار ثم إلى نفسها.

«منظاري؟ تريدين أن تجربي منظاري؟» تردد، ثم أعطاه لها، «إنه منظار جيد. هدية من جدي بمناسبة بلوغي سن الرشد (15).»

تقدم خطوة نحو أماني وأعطاه لها.

لقد فهمت كل كلمة قالها تقريبًا.

ضبطت عدسات المنظار على وجه الصبي الذي تعلوه الغشاوة، وركزتهما على عينيه. كانتا بنيتين داكنتين بخطوط عسلية وخضراء.

قال: «أنا مراقب طيور.»

ركزت المنظار على شفتيه المتحركتين.

«فقط الآن أصبحت مراقب ذئاب»، قال مبتسمًا. وجسران معدنيان يغطيان أسنانه، «أنا مندهش لرؤية ذئب هنا في البرية. هناك مجموعة

---

(15) يسمى بالعبرية "ميتزفة" حيث يعتقد اليهود أن الصبي يبلغ سن الرشد حين يبلغ سن 13 عامًا والبنت 12 عامًا وحينها يقال لهما "ابن الوصية" أو "ابنة الوصية" أي مكلفين بالوصايا العشر المنصوص عليها في الديانة اليهودية.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

محمية منها في مرتفعات الجولان، لكنه ليس واحدًا منها. أظنه ذئبًا إيرانيًا. الذئاب الإيرانية مهددة بالانقراض، كما تعرفين.»

تابعت أماني معظم ما قاله. عادت وضبطت العدسات عليه وهي صامتة؛ فقد شعرت أن ذلك ما يجعله يتكلم.

«تعلمين، من الفظاظة التحديق بشخص على هذا النحو. أردت أن أكلمك أمس لكن... بدوتِ غاضبة جدًا.»

صمت قليلاً، لإعطائها فرصة لتقول شيئًا. بقي وجهها سلبيًا. تابع: «أظن أنني سأكون غاضبًا أيضًا لو كنت مكانك. أنا هنا بسبب أبي. كان حلمه أن يبني مستوطنة. أمي رفضت أن تأتي معه، لكني كنت فضوليًا. كل شيء تغير في أول يوم رأيتك فيه أنت والذئب. لم أتوقع ذلك أبدًا. أن أشعر بأننا نطاردكم خارج أرضكم. أنا لا أستطيع أن أقترب منه، كما تعلمين. عليّ أن أراقب من الأسفل هنا. هناك فتحة بين الصخور. إن صعدت إلى المرج، فسيختفي. أنت تغيظينني قليلاً. تستطيعين أن تعيدي المنظار لي متى شئت. الآن مثلاً. أو الآن. سيغضب أبي لو ضيعته. الأمر ليس بتلك الأهمية. نحن نتشاجر منذ ذلك اليوم. أنا لا أستطيع تحمل ما يقال في المستوطنة. أريد العودة إلى نيويورك لأعيش مع أمي. سأعيد التفكير بطريقة أخرى للقيام بالعَلِيّا(16). لهذا نعم، هيه، خلِّ منظاري معك.»

مباشرة، رمت أماني بالمنظار نحوه.

ضاقت عيناه: «أنت تفهمين ما أقوله، أليس كذلك؟!»

---

(16) عليا كلمة عبرية تعني "الصعود" وتعني عند اليهود الهجرة لفلسطين، أو ما يسمونه أرض إسرائيل، أما هجرة اليهود منها فتسمى يريدا وتعني "النزول"

ضاقت عيناها، تقلده: «نعم.»

توقد وجهه: «ذلك رائع. لِمَ لَمْ تقولي ذلك؟»

«أنت مستوطن. المستوطنون يقومون بأفعال سيئة.»

توقف عن الابتسام: «نحن نقوم بأفعال سيئة؟ أنتم من تقومون بأفعال سيئة. أنتم لا تعترفون بدولتنا. أنتم تأتون إلى مدننا بهجماتكم الانتحارية. أنتم تقتلون الأبرياء والنساء والأطفال في المدارس.»

«أنا لا أقتل. أنا راعية.»

«لستِ أنتِ»، قال ونبرة الغضب تتراجع في صوته. «بالتأكيد، أنا لا أعنيك. أنا أعني الفلسطينيين. أنا أعني الإرهابيين.»

«أنا لست إرهابية. عائلتي ليست إرهابية. أنتم سلبتم أرضنا. أنتم وضعتم عمي هاني في السجن. أنتم تجعلوننا نكرهكم. نحن نحارب إسرائيل.»

نظر إليها مشدوهًا، «الله أعطانا هذه الأرض. هذه هآريتز (17). أرضنا المقدسة. كنت أتمنى ألا يكون الأمر كذلك، لكنه كذلك. أنتم يجب أن ترحلوا. من قلت هو في السجن؟»

لم تتمكن أماني من تذكر تلك الكلمة الإنجليزية التي تعني العم. هناك الكثير مما يجعلها تستشيط غضبًا. والآن، ما دام الأمر قد بدأ فلا يمكن التوقف.

«لقد نصبتم سياجًا حول جبل جدي. أغنامي تحتاج هذا الجبل. لقد قلعتم كرومنا لتمدوا طريقكم. إنه طريقكم أنتم فقط. أنتم لا تطلبون. أنتم تأخذون. أبوك قتل غنمتي. أبوك بيده بندقية. أما أنا فلا بندقية عندي.»

---

(17) هآريتز، كلمة عبرية تعني الأرض الموعودة لإسرائيل عند اليهود.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

شيء ما تغير في عينيه: «حاولت أن أمنعه. لقد قال إنكم كلكم خطرون، وأننا يجب أن ندافع عن أنفسنا. إنه يخاف منكم، ويريد أن يخيفكم ليبعدكم من هنا. يجب أن ترحلوا قبل أن يتعرض أحد للأذى.»

من أعلى الدرج الحجري نبح ساحم عليها. هل حان الوقت للذهاب؟

لم تكن أماني تريد أن تغضب. ليس في الفردوس. لم تعد ترغب في الحديث مع هذا الصبي المستوطن أكثر من ذلك.

«طيب. أنا ذاهبة الآن.»

أعطت الإشارة بيدها. واندفعت الأغنام أمامها، نزولاً على السفوح إلى الهضبة حيث تفرقت لترعى. أدارت أماني ظهرها للصبي وأسرعت في نزول الدرجات.

«لا!» ناداها: «أنا لا أعنيك أنت. لا تذهبي.»

لم يكن بإمكانهما قط أن يفهم أحدهما الآخر، فواصلت أماني المشي.

«أرجوك، قبل أن تذهبي، على الأقل... ما اسمك؟»

توقفت أماني. استدارت وحدقت فيه.

«فلسطين.»

ودور عينيه في محجريهما: «أعرف أنه ليس اسمك الحقيقي.» لكنه مع ذلك تمكن من الابتسام، ما أدهش أماني.

«طيب، يا فلسطين. اسمي جوناثان. مسرور بأني التقيت بك أخيرًا. هنا، في هذا المكان الجميل. لو تعلمين كم كنت متلهفًا لأرجع إلى هنا. كنت أخشى أن يراني أحدهم ويعثر على الدرب. هل نلتقي ثانية؟»

أومأت أماني موافقة: «طيب يا جوناثان. سأقابلك بعد قطف الزيتون. لن يكون عندي فراغ حتى ذلك الوقت.»

[23]

رَنَّ هاتف الأب. ضغط زرًا صغيرًا عليه كلمة "تحدث".

«مرحبا حبيبتي!» صاح. وأشار لأماني حتى تتوقف عن الفرم.

سكبت أماني البندورة المفرومة في وعاء وتبعته إلى خارج المطبخ. كانت أمها المتصلة.

سرعان ما تغيرت النظرة على وجهه. وجلس على طرف الكنبة وأسند رأسه على يده الفارغة وهو يسمع.

«سأذهب إلى مكتب الأذونات في الخليل. ارجعي إلى الحدود غدًا. ارجعي كل يوم. اتصلي بي وأخبريني بما يجري.»

وأقفل الهاتف بسرعة: «لم يسمحوا لها بالدخول.»

جلست أماني على الكنبة.

أشعل أبوها سيجارة، وبدأ يروح ويجيء على طول الدار.

سألت أماني: «وماذا عن عمر؟»

« ينتظرها في رام الله. سنعيدها للدار بطريقة ما. وبعدها لن تغادر الوادي ثانية.»

قالت أماني: «أنا أعد الأيام. بل إني أردت لجدتي أن تموت...»

«كفى!» قال وهو يقربها منه: «لا تقولي ذلك. أنت لم تعني ذلك حقًا. لقد شعرت بالشيء نفسه. ما الذي كان سيدو يقوله دومًا حين تضيع نعجة؟»

أجبرت أماني نفسها على الابتسام: «اعثري عليها وعودي بها.»

قال أبوها: «طيب. يجب أن أجري بعض الاتصالات بالهاتف.»

لن يدخل عمر والأم من هذا الباب. لن يكونا في البيت عند قطف الزيتون. من أين يأتي الوالد بالصبر؟

سمعت أصواتًا في الخارج. كانت الأصوات تأتي من الطرف الآخر للوادي. ونظرت أماني إلى أبيها قلقة. كان ذهنه مشغولاً عنها وهو يتحدث على الهاتف بالعبرية، ويمشي.

خرجت من الباب الجانبي، وأغلقته وراءها لتتمكن من الرؤية عبر الوادي المظلم. على قمة سيدو تلألأت أنوار المستوطنة. ولا شيء يتحرك على السفح أسفل السياج. أمّا دار سيدو فكانت مظلمة، وكذلك دار العم هاني بجانبها.

لكنها حدقت بإمعان، فشاهدت ضوءًا اشتعل في الدار. وبعدها ببضع ثوانٍ اقترب رجل من درجات مصطبة سيدو بفانوس في يده، ويحمل طفلاً صغيرًا على خاصرته. وقف منتصف الدرج. ثم تعالت الأصوات ثانية ينادي بعضها على بعض بالعربية. وركضت بنت نحو الدرجات لتأخذ الطفل من الرجل. ثم صعدت الدرج ببطء وراءها امرأة صغيرة الجسد منحنية الظهر، وعلى رأسها حجاب طويل.

«ستي!» صاحت أماني التي عرفت جدتها.

استدار من على المصطبة ولوحوا لها بأيديهم.

«أماني؟ أين أنت؟» أتى صوت رجاء. كانت هي البنت التي على الدرج وتحمل أختها الصغيرة عريب.

«أنا هنا! في دارنا.» وفتحت أماني باب الدار لتقف في الضوء.

«أتينا بالطعام والعائلة. وبابنة عمك نهلة من المدينة»، علا صوت أبو نادر في الوادي: «جئنا لمساعدتكم في قطف الزيتون غدًا. أين أبوك؟»

بعد وقت قصير كانت أماني تقعد بجانب أبيها، وتستمتع بوجبتها وسط الصخب على مصطبة سيدو. بدا الجو شبيهًا بالأيام الخوالي. وحضور بنات عم أماني الكبيرات مع عائلاتهن جعل الحلقة أكبر وأكثر دفئًا. كما أن العمة فاطمة استطاعت الابتسام وهي ترى نفسها محاطة ببناتها. حكى لهم الأب عن مشكلة الأم، ودار حديث طويل عن كيفية المجيء بها إلى الدار من الأردن. وخلال الحديث، مدت وردة يدها لتمسك بيد أماني.

«الله يحفظها»، قالت وردة.

«ويحفظ أباك أيضًا»، قالت أماني، من قلبها.

بعد العشاء رتبوا ما تبقى من طعام لنزهتهم غدًا. أين هي السلالم؟ وأين هي المفارش البلاستيكية؟ والدلاء وأكياس الخيش؟ كان العم هاني قد رتب كل شيء بإتقان في المغارة من الخلف.

أخيرًا أصبح كل شيء جاهزًا. كان الجو أبرد من أن يسمح لهم بالنوم خارج الدار. ولهذا توزعوا بين الدور الثلاث، واتفقوا على أن يبدأ القطاف فجرًا.

أماني، التي كانت أول من نهض، أسرعت لحلب النعجات. ثم أخذت بهائمها إلى الحرش لتشرب وترعى ما يمكنها قضمه، فيما كانت

تستمع إلى القطّافين وهم بين أشجار الصف الأعلى. وأحالت الشمس السماء للوردي مدفئة الهواء. وبقي كرم الزيتون هادئًا.

جلست أماني على الحائط مقاومة إغراء الدرب الخفي. كان قويًا، غير أن إغراء قطاف الزيتون لم يكن أقل قوة. فركت قدميها إحداهما بالأخرى. أين هي عائلتها؟ لا بد لشيء أن يحدث. وفيما يساور نفسها القلق، عادت بالقطيع إلى الحظيرة، وشاهدت الآخرين بين أشجار الزيتون أسفل التلة. لم تكن تسمع صوتهم من الحرش.

حين التحقت بهم أماني كان والدها يقطف حبات الزيتون من على السلم.

سألته: «لِمَ لَمْ تبدأ من الأعلى؟»

كان أبناء وبنات عمها منتشرين بين أغصان الأشجار مثل القرود، يبحثون عن الحبات المختبئة على الأغصان الخارجية البعيدة.

أجاب الأب: «المستوطنون لن يرونا من هنا. مثلما كانت تقول أمك، الابتعاد قليلاً يمكن أن يكون مفيدًا.»

بتبكيرهم في العمل وكثرتهم استطاعوا أن يقطفوا ست عشرة شجرة في يومهم الأول. ثم نصبوا عدتهم تحت شجرة في صف وسط المدرجات استعدادًا ليومهم الثاني. كانت ظهورهم تؤلمهم وأصابعهم خدرة. وأتت أماني باللبن والجبن من المغارة مسرورة أن لديها مؤونة لإطعام الجميع.

بعد أن سقت غنماتها في الصباح الباكر من اليوم التالي، قابلت أبا نادر وهو في طريقه إلى كرم الزيتون.

«أين تسرحين بها الآن؟» سألها، وهو ينظر إلى قطيعها. لقد سمنت

قليلاً بفضل الفردوس وبث فيها المزيد من الطاقة.

أماني التي فاجأها السؤال تظاهرت بأن هناك مشكلة في إغلاق باب الحظيرة.

«أينما تيسر ذلك لي.»

تنهد، «قبل سنوات كان قطيعي بحجم قطيع جدك تقريبًا. أما الآن فلم يعد عندي سوى كبش وحملين سنأكل أحدهما، وربما الاثنين قبل أن ينتهي رمضان. كان جدك سيفخر بك. حتى الحمقى يمكنهم أن يروا أنك فعلاً حفيدة الراعي.»

طوال نهار القطاف الطويل كان مديح أبي نادر يشد عزيمة أماني. وكذلك فعلت رجاء وهي تغني بصوتها الصافي. كلما طلب أحدهم أغنية غنّت رجاء بيتًا منها، ثم انضم إليها الآخرون في الغناء. كان الغناء يجدد نشاط الجميع ويساعدهم في تجاهل شكوى عضلاتهم.

أصبح العمل أبطأ من اليوم السابق غير أنه متواصل. شجرتان قبل الفطور وست أخرى قبل بلوغ المدرجات العليا. أصبح السلك الشائك على السياج المحيط بقمة سيدو واضحًا. ما عاد أحد يطلب أغنية. وبصمت، أوقفوا القطاف لغداء متأخر.

بمعداتهم المتلئة استلقى الجميع على الأرض لإراحة ظهورهم باستثناء ستي والأطفال الصغار، ثم عادوا للعمل ثانية. تبقى من ضوء النهار بضع ساعات. وأماني كانت الوحيدة التي تنظر بين الحين والآخر إلى السياج.

فجأة أخذ كلب يعوي من على قمة سيدو. ثم المزيد من الكلاب. وأصوات غاضبة.

استدارت أماني بسرعة لتنظر إلى السياج. كان المستوطنون يواصلون التجمع وراء السياج: نساء وأطفال وبضعة رجال يحملون البنادق، وكلاب تعدو هنا وهناك.

أخذوا يصرخون: «ابتعدوا من هنا! هذه أرضنا!»

نظرت أماني باحثة عن جوناثان. لم يكن بينهم. وظهر عدة رجال من حول الحافة الغربية للقمة. كانوا أسفل السياج. يقدمون مسرعين. وببنادقهم المعلقة على أكتافهم، وصلوا إلى درب الأغنام الضيق، الذي يلتف هابطًا حول الجانب الأعلى للجبل، ثم أخذوا ينزلقون، ويركضون نازلين. أحدهم أطلق رصاصة فوق أشجار الزيتون.

أمسكت أماني المذعورة بالسلم الذي كانت تقطف من عليه وحاولت النزول. لكن قدمها زلت من على الدرجة.

صاح أبوها: «بسرعة! خذي الأولاد.»

الكل أخذ يركض ويصرخ.

قفزت أماني من على السلم وقبعت تحت الشجرة. وسامر، أكبر أبناء نهلة، تعلق بغصن محاولاً الاختباء.

مدت له أماني يديها: «يا الله! اقفز على ظهري. سآخذك لأمك.»

«سيرمونني بالرصاص.»

«لا، لن يفعلوا»، وعدته. ثم أدركت أنه كان محقًا. إن صعد سامر على ظهرها، فسيصبح هدفًا.

«أرأيت من قبل صورة كنغر؟»

أومأ سامر موافقًا.

«إذًا تعلق بي من الأمام. تستطيع ذلك؟ تستطيع أن تقلد الكنغر؟» أشرق

وجهه وانزلق نازلاً، ثم لف عنقها بذراعيه وأحاط خاصرتها بساقيه.
ركضت أماني، كانت الأخيرة بينهم، نزلت المدرجات، ومرت بحظيرة الأغنام ثم عبرت حديقة الورود. انحنت فوق المصطبة وارتمى سامر بين ذراعي أمه المدودتين. مكتبة الرمحي أحمد
توقفت سيارتا جيب عسكريتان على درب الجرارات. وأخذ الأب يتحدث مع أحد الجنود الإسرائيليين. انقبض قلب أماني. لقد كان هو نفسه الضابط القصير الذي صاحوا فيه غاضبين أثناء تظاهرهم ضد الطريق السريع. تمنت أماني بشدة لو أن الحاخام كان موجودًا.
«أنتم قريبون جدًا من المستوطنة. ابقوا بعيدين عن أشجار الزيتون»، قال الضابط.
حاول الأب أن يقنعه. هذه أرض العائلة، وهم فلاحون مسالمون يقطفون محصولهم.
ثم فاجأ الجميعَ صياحٌ آتٍ من كرم الزيتون.
كان ثلاثة مستوطنين يمشون نحوهم، وهم يوجهون بنادقهم نحو العائلة والمصطبة. اقترب أحدهم من الضابط وخاطبه بالعبرية، وهو يقوم بإشارات غاضبة نحو القمة والكرم والعائلة على المصطبة. كان الضابط ينقل نظره من الأب إلى المستوطن، متبرم الوجه. وأخيرًا أومأ وقال شيئًا بصوت هادئ جدًا بحيث لم تسمعه أماني. أيًا كان الذي قاله، فهو لم يعجب والدها. رفع يديه بإشارة مستعطفة. وسمعته أماني بوضوح وهو يقول: «...أيُّ حق لكم في هذا؟»
صرخ الضابط: «أمننا. إنه يعطينا كل الحق.»
تبادل المستوطن بضع كلمات أخرى مع الضابط، ثم قفل عائدًا عبر

الحديقة وهو يشير لرفيقيه ليتبعاه. توقفوا بجانب حظيرة الأغنام ونظروا إلى القطيع.

اقشعر جسد أماني. لكنها شعرت بالارتياح وهي تراهم يمشون نحو كرم الزيتون ثم يختفون.

أعطى الضابط أوامره لهم جميعًا على المصطبة بصوت عالٍ: «إن وضعتم قدمكم في ذلك الكرم فسأصادر شاحنتكم وكل ما يكون معكم. المستوطنون خائفون من أنكم ستخفون قناصات خلف الأشجار وتحاولون رميهم بالرصاص. أنتم قريبون جدًا من المستوطنة. عليكم الرحيل إلى القرية.»

نظر الأب إلى الجنود وهم يبتعدون بسياراتهم. وانتفخ وريد على جانب رقبته. مشى يغذ خطاه نحو الحديقة ثم عاد، ومشط شعره بأصابع يديه قبل أن يقول: «ارجعوا لداركم. المستوطنون سيطلقون الرصاص عليكم إن رأوكم في الكرم. الجيش سيوفر حمايته لهم، وليس لنا، حتى ولو قتلونا ونحن نقطف الزيتون، عزّلاً من السلاح، على أرضنا.»

تحدث الكبار طويلاً، لكن أماني لم تكن تستمع. كان صعبًا عليها أن تصدق. أمن المعقول ألاّ يُسمح لهم أن يذهبوا لكرم الزيتون؟ كلما فكرت بالأمر احتد غضبها.

أحست بيد تمسح كتفها. كانت وردة وأخواتها قد أحطن بها.

«تعالي معنا إلى القرية يا أماني. أرجوك. بقاؤك قريبة من المستوطنين هنا الليلة ليس آمنًا. يمكنك أن تأتي بغنماتك إلى حظيرة خالي. سيكون أبو نادر سعيدًا بأن تسرحي له بغنماته مع غنماتك.»

لكن عرض وردة هذا كاد يبكيها. لقد شملت وردة غنماتها. غير أن غنماتها التسع لن تجد شيئًا لتأكله في القرية.

اختارت أماني كلماتها: «أشكرك. أعطيني بعض الوقت. أنتن مثل أخواتي.»

على درب الجرار ساعد الوالد ستي في أن تصعد للمقطورة. ثم صعدت بنات عمها وجلسن في أماكنهن. وقفت أماني بجانب أبيها ولوحوا لهم، فيما تحركت المقطورة وقفزت على طريق القرية القديم وهي تصغر أمامهم مبتعدة. أصبحت الشمس على وشك الغروب واحمرت السماء وبرد الجو.

قال أبوها: «واصلي التلويح. المستوطنون يراقبون كل شيء نفعله. تخيلي نفسك في الأعلى وتراقبيننا. ما الذي سترينه؟ كلهم ما عدا اثنين من الإرهابيين الفلسطينيين الخطرين رحلوا.»

لوحت أماني بيدها وتخيلت وهي تراقب نفسها. ما الذي يخطط له والدها؟

«طيب الآن نتكلم أمام دار سيدو حيث لا يمكنهم أن يرونا. وهذه هي خطتي. الشاحنة محملة قليلاً عند أسفل كرم الزيتون. سيحل الظلام قريبًا، وحين تظلم سأحمل الأكياس الباقية تحت الأشجار وأحملها على الشاحنة. لا أستطيع أن أخاطر بالمرور عند الحاجز العسكري خارج الخليل. اسمي سيكون في قائمة مع ذلك الضابط. وسيكون سعيدًا في أن يراني وأنا ألحق بأخي. سأسوق الشاحنة إلى بيت لحم. أما أنت فاركبي الحمار واذهبي للقرية...»

«لا يا أبي. سأذهب معك وأساعدك.»

لو كان عمر أو العم هاني هنا، لَعَمِلَ الرجال معًا لإنقاذ المحصول. ما كانوا ليخافوا.

«ستحتاج الحمار لحمل الأكياس الثقيلة»، قالت أماني: «وأنا عندي طريقتي في التعامل مع الحيوانات. سأبقي الحمار هادئًا.»

«أنت بنت شجاعة يا أماني. ما الذي كنت سأفعله من دونك؟»

وحين هبط الليل، غابت شجاعة أماني مع الضوء. المستوطنون سيطلقون الرصاص لو رأوا أي إنسان في كرم الزيتون. وأخذ عش من العقارب يلعب في حِجر أماني. والشيء الوحيد المفيد في الظلام هو أنها ستتمكن من إخفاء خوفها عن أبيها.

[24]

والد أماني يعرف تمامًا أين ترك الأكياس المنتفخة بالزيتون عند الصف الأخير الذي قطفوه قبل الغداء. قاد أماني والحمار مثل الوطواط بين الأشجار في الكرم المظلم دون أن يحتاج أي مشعل.

لو أتى المستوطنون من على السفح ليردوهم فلا بد وأنهم سيحملون مصابيح، أليس كذلك؟ كانت أماني تراقب أي حركة، فيما كان الأب يرفع الأكياس إلى ظهر الحمار.

لكن صوتًا ما جعلها تقفز، شيء ما تحرك على الحجارة. حملقت في الأشجار المظلمة. أهي الأغصان يا ترى؟ أم أنها بنادق طويلة موجهة إليهم؟

«ماذا كان ذلك؟» سألت هامسة.

«ليس مستوطنًا»، أجابها هامسًا: «اذهبي وانتظريني عند الشاحنة.»

ستمشي وحيدة بين المدرجات؟

«لا. أنا أبقي الحمار هادئًا.»

وأحاطت بيدها رقبة الحمار وتبعت والدها إلى الكيس الأخير، وهي ممتنة للحمار لبقائه صامتًا. بعد أن انتهيا، نزلا بهدوء وبطء نحو الشاحنة، ببطء شديد لتتحمله أعصاب أماني. ركضت إلى جانب

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

الشاحنة من جهة السائق وأخذت ترمي الأكياس بما أوتيت من سرعة. وحتى لو سمعها أبوها فهو لم يقل شيئًا.

واصل الظلام إعماء العيون عنهما وهما في طريقهما إلى بيت لحم. وأبقى الأب مصابيح السيارة مطفأة. كانت نجوم السماء والقمر نصف المكتمل تلقي على الأرض بضوء مثير للأعصاب. ساقوا الشاحنة على طريق القرية بجانب كروم العنب حتى نهايته عند طريق المستوطنين. وأمسكت أماني بذراع أبيها. عاد إلى ذهنها المشهد المروع لحذاء عمها وهو يغيب عن الأنظار وحبات العنب المتدحرجة.

«لنذهب يا أماني. لا أستطيع التفكير أو السياقة وأنت ممسكة بذراعي. أعرف بمَ تفكرين. نحن لن نسوق على الطريق السريع. استريحي.»

«لكننا نسير جنوبًا. أليست بيت لحم في الشمال؟»

«ليس هذا ما يمكنك أن تسميه طريقًا مباشرًا»، قال قبل أن يلف المقود بحدة. وبدأت السيارة تقفز على أرض وعرة.

«لكن يا أبي، ليس أمامنا في هذا الاتجاه إلا الجبال والصحراء.»

«ليس هذا وقتًا لمحاضرة في الجغرافيا. هناك معابر ووديان وطرق قديمة. ثقي بما أفعله يا أماني. أنا أعرف الطريق إلى بيت لحم.»

غيّر الأب التروس حتى وصل أثقلها. وأخذت الشاحنة تئزّ وهي تصعد السفح الحاد.

«هل أنزل وأمشي؟» سألت أماني.

«أتستطيعين حمل عشرين كيس زيتون؟» قال ممازحًا: «كفي عن القلق وإلا سأعيدك إلى الدار. اعتدت على أخذ أمك على هذا الدرب لتحتفل بعيد الميلاد في بيت لحم.»

«ومتى كان ذلك؟»

«قبل أن يجعلنا الجدار الفاصل والحواجز العسكرية نشعر وكأننا نعيش في سجن.»

«طيب كيف سندخل؟»

«من الباب الخلفي.»

ورن هاتفه الخليوي.

«كنا نتحدث عنك الآن. ماذا حدث؟»

استمع وهو يهز رأسه: «أماني هنا معي. قولي لها ذلك.»

أخذت أماني الهاتف. وشرحت لها أمها كيف أن مجندة على الحدود اتهمتها بأن نظرتها خطرة ورفضت السماح لها بالدخول.

«وماذا فعلتِ؟»

«كدت أصفعها»، قالت الأم: «كانت شابة وجميلة، مثل رجاء. ربما كانت نظرتي خطرة. غدًا سأضع مكياجًا وأقف في طابور أمام جندي. سأبتسم له مثل المجانين»، وضحكت: «إن لم يكن نظره جيدًا، فسأكون في الدار بعد المغرب.»

«ليس عندك ثوب قصير.»

«أنا أقصره الآن.»

ثم تمنت كل منهما للأخرى ليلة سعيدة. كفت أماني عن محاولتها معرفة أين أصبحا واستسلمت للدفء داخل الشاحنة واهتزازها. وغطت في النوم إلى أن أنزل الأب شباك الشاحنة بجانبه ليسأل عن الدرب إلى معصرة الزيتون. واستيقظت حين لفحها هواء الليل البارد. كانا يسيران بشاحنتهما في أزقة ضيقة بين مبانٍ منخفضة. ولمحت

أماني جدارًا ضخمًا وأسلاكًا شائكة ومصابيح متوهجة.
بيت لحم.
على الرغم من تأخر الوقت في الليل، كان هناك طابور طويل من العائلات والأكياس المنتفخة خارج معصرة الزيتون. وساعدت أماني أباها في إفراغ أكياسهم آخر الطابور. كانا غريبين عن المدينة، غير أن الأب لم يأخذ وقتًا طويلاً حتى عرف الجميع. وحين سمعوا قصتهما أتى أحدهم له بصينية قهوة، وآخر بخبز وفلافل. أحاطت عدة نسوة بأماني وسألنها عن عمها وأمها والمستوطنة. وتحول الطابور إلى حلقة كبيرة، الكل يأكل ويتحدث بصوت عالٍ ليكون مسموعًا مع صخب الآلات في الداخل. الكل لديه قصة عن زوج أو ابن أو أخ أو ابن عم دخل سجون الإسرائيليين أو شخص منعوه من عبور الحدود.
قال أحد الحاضرين إن الأب ليس عنده الكثير من الوقت، وأن عليه أن يعود بشاحنته تحت جنح الظلام. وسمح لهما الجميع بأن ينتقلا لأول الطابور.
باع الأب معظم الزيت بسعر معقول، وأبقى صفيحتين للعائلة. وأخذ يدندن طوال الطريق وهما عائدان، حتى عند تقافز الشاحنة وهما يهبطان للوادي. أطلت أماني من النافذة قلقة. ضباب فضي كان يلف قاع الوادي. ولم تسترح حتى أوقف أبوها الشاحنة بجانب دار سيدو وأطفأ مصابيحها الأمامية.
ووضعا إحدى صفيحتي الزيت البلاستيكية في المغارة.
«هناك شيء ما غير طبيعي يا أبي. اسمع»، قالت أماني. لقد سمعت الأغنام صوت وصولهما وبدأت تثغو بعد يومين من الجوع داخل

الحظيرة. وأخذ الديك يوقظ الدجاجات على الجانب الآخر من دار عمها هاني.

نظر أبوها في ساعته: «حتى الآن لم يؤذن الصبح. هذا غريب في أول أيام رمضان.»

ربما يكون المؤذن مريضًا؟ أنصتت أماني لثغاء الغنمات المثير للشفقة. ستصاب بالمرض أيضًا إن لم تملأ بطونها.

«ألم يتأخر الوقت للسحور؟» سألت أباها وهي تتبعه إلى مطبخ ستي.

«لا يزال الوقت مبكرًا.» ملأ الأب ركوة قهوة بالماء ووضعها على الموقد.

«أنت مستعجلة؟ ليس هناك مدرسة اليوم، عندك مدرسة؟»

«لا. لكن يجب أن أسرح بالغنمات. إنها جائعة.»

«ونحن سنجوع أيضًا إن لم نأكل شيئًا. سأذهب بالسيارة لآخذ صفيحة الزيت الأخرى لإصلاح. أين ستسرحين بالأغنام؟»

«في مكان عرفني عليه سيدو للطوارئ.»

وتثاءب الوالد، كان متعبًا ولم يرغب بمزيد من الأسئلة.

وضعت أماني ما عندهم من بقية طعام فيما كان أبوها يغلي القهوة. ثم ابتلعت قطعة خبز وبيضة مسلوقة باردة. أول أيام الصوم سيكون صعبًا. ولهذا أكلت ما يقيم أودها حتى المغرب.

ثم ركضت إلى الحظيرة، وهي تنتظر أن تسمع- أخيرًا- الشاحنة وهي تهدر مبتعدة.

«يا الله!» فتحت الباب وهي تفكر بالمجازفة. لن يتمكن مستوطن أن يراهم في كرم الزيتون من وراء السياج بسبب الضباب. لكنه يمكن أن يسمعهم. عليهم أن يكونوا سريعين وهادئين.

رائحة الأشجار الرطبة وصفوف الأشجار المثقلة بحملها من الزيتون غير المقطوف ملأتها غضبًا. ومن هذا الغضب استمدت شجاعتها.

لكن الأغنام لم تكن سريعة ولا هادئة. الجوع جعلها خائرة القوة، وتحركت ببطء عبر المدرجات العليا وهي تثغو، وساحم ينبح. أصواتها قطعت صمت الصباح الباكر.

أسرعي، كان الصوت في قلبها يستحث الغنمات. ركضت أمام الأغنام، وهي تبحث عن بقعة على الحائط تكون قريبة من الدرب الخفي، والأغنام وراءها.

إلى الفردوس!

[25]

هبت ريح باردة على الهضبة لتهيج بعضًا من التراب الرخو. مشت أماني ببطء والناجية تنقر بأنفها ربلة (18) ساق أماني. مسحت بيدها على جبينها الأسود: «كدنا نصل. أنا متعبة جدًا ولا أستطيع حملك.»

صعدوا الدرجات الوعرة الأخيرة نحو الشرفة، وها هو هناك. المرج الصغير. لم تشاهد ذئبًا.

استرخى ساحم وترك القطيع يرعى عند الطرف البعيد. كان ذلك فألاً طيبًا.

وضعت أماني عصاها بجانبها، وجلست بين الأعشاب ويداها حول ركبتيها. كانت مرهقة. الشرفة صدت عنها الريح الباردة، فيما أخذت الشمس تدفئ الهواء فوق المرج وهي ترتفع في السماء.

يومان من القطاف الصعب ثم ليلة في بيت لحم تركت أثرها عليها. وغطت أماني في النوم.

حين استيقظت كانت الشمس قد أصبحت في كبد السماء، وساحم ينبح. كان قد ساق الغنمات وجمعها عند الفتحة على الجانب الآخر،

---

(18) ربلة الساق هي الجزء الخلفي من الساق أسفل الركبة.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

وهو يأخذها خارج الفردوس. قفزت أماني على قدميها وجالت بعينيها على السفح قلقة.

أسفل السفح قريبًا من الأرض، يربض ذئبان بالغان بعد أن اقتربا خلسة في طريقهما إلى المرج. ووراءهما جروان يافعان يتبعانهما. ولحسن الحظ فقد تحول اتجاه الريح لتهب من على السفح. وهذا ما جعل ساحم يلتقط رائحتها قبل وصولها.

أيًا كان ما يدور في ذهنيهما، فقد غيّر الذئب القائد رأيه فجأة. وفورًا أطاعته رفيقته والجروان. وبدأ طابور الذئاب الرمادي يصعد السفح الحجري.

كان جوناثان واقفًا عند الفتحة أعلى الدرج الصخري، وهو يشير لأعلى الجبل حيث كانت الذئاب تقف. وعلى محياه مزيج من الخوف والدهشة.

«أمر لا يصدق»، قال: «أرأيتِ كيف تحركت سريعًا في جماعة؟»

«لقد أخفتها. وأخفتني.»

أدار جوناثان رأسه إلى جانبه ونظر إليها نظرة مستغربة.

«أهذا نوع من الشكر؟ أغنامك كانت على وشك أن تصير غداءً مميزًا.»

كان يمازحها. لكن ما الذي يعنيها بالصبيان والمزاح؟ التقطت أماني عصاها وأسرعت نحو الدرج.

«أريد أن آخذ غنماتي إلى الدار.»

«نحن هنا اثنان وكلبك. وهي تخاف البشر، كما تعرفين.»

مشيا صامتين إلى أن وصلا سنام الجمل. كان الضوء ما يزال يغمر المكان. مسح جوناثان السفح أمامهما والهضبة وراءهما بمنظاره.

«أمان»، قال.

دفعت أماني بالقطيع إلى الدرب الهابط بين جلاميد الصخر. ثم تبعتها، في طابور واحدًا بعد الآخر، وهي تحس بعيني جوناثان على ظهرها.

«لم يسبق أن رأيت صغار الذئب من قبل»، قالت: «ما هي الكلمة الإنجليزية؟»

«جرو. هل تتعلمين الإنجليزية في المدرسة؟ هي جيدة بشكل مروع. لقد تعلمت العبرية في مدرسة دينية بنيويورك. إنها مروعة حقًا.»

«مروع؟ جيدة؟ أرجوك، تكلم ببطء.»

«هل... تذهبين... إلى... المدرسة؟» كلمات مقتضبة وبصوتٍ عالٍ.

ماذا؟ هل يظنني جاهلة؟ صماء؟

«نعم... أنا... أذهب.»

ضحك: «عفوًا. اسمحي لي أن أحاول ثانية. من الصعب أن أتحادث مع ظهرك. مروع تعني "سيء"، ولكن حين تضيفينها إلى جيد، فإن معناها يصبح "عظيم". لا بد وأن عندك معلمة جيدة على نحو مروع.»

«إنها الآنسة عْبوشي. هي فلسطينية لكنها نشأت في أمريكا. نعم، هي جيدة بشكل مروع.»

«أنا تعلمت العبرية بقراءة التوراة. أستطيع أن أصلي بها لكني لا أستطيع أن أستقل حافلة إلى تل أبيب.»

أمامهما، وصلت الأغنام نهاية الدرب فوق الحائط.

«الآنسة عبوشي تقول إن كل من هو في أمريكا يلعب 'روح صيد السمك'. هل تلعبها؟»

ضحك جوناثان، «وأنا صغير كنت ألعبها دومًا. أمي معلمة في نيويورك. إنها خبيرة في تلك الألعاب التعليمية. عندي بطاقات بصور أشجار.»

أشجار. عادت صورة قوية للمستوطنين المسلحين وهم يطردون عائلتها من كرم الزيتون إلى مخيلة أماني فاستدارت وهي ترفع قبضتيها.

نظر جوناثان في وجهها ورفع يديه دفاعًا عن نفسه.

«ماذا؟ ماذا قلت؟»

«أمس أتى أهلك يصرخون علينا. أنتم أتيتم بالكلاب والبنادق. أنتم أتيتم بجيشكم. أنتم منعتمونا من قطف زيتوننا.»

«أمس»، قال جوناثان رافعًا صوته، وهو يمعن التفكير ليستوعب: «تعنين ما حدث في كرم الزيتون؟ أتمنى أن تتوقفي عن قول أنتم. أنا لم أكن بينهم. دخلت في شجار كبير مع أبي لأنني حاولت منعهم. لا أشعر بأن أخذ الأرض بهذه الطريقة صواب.»

«سنقاتلكم. سنقاتل دفاعًا عن أشجار زيتوننا. سنقاتل دفاعًا عن أرضنا.»

وتجهم وجه جوناثان، «لست بحاجة لتقاتليني. أعرف أنك تحبين هذه الأرض. لكن المستوطنين يؤمنون بأن الله قد أعطاهم هذه الأرض. وهم لن يشاركوا أحدًا بهآريتز. لا تقاتلوهم. الجيش الإسرائيلي سيحميهم. الوضع سيصبح أسوأ لكم.»

وحملت أماني بندقية وهمية بيديها، «إلهكم يقول اقتلونا؟ اسرقوا أرضنا؟»

«هم لا يعتبرون الأمر سرقة. هم سيستفزونكم، وسيقتلونكم إن كان

هذا ضروريًا لاستعادة أرضهم المقدسة. خطتهم هي أن يحركوا السياج. وأنا لا أستطيع منعهم. عمري ست عشرة سنة. وهم لا ينصتون إلي.»

هزت أماني قبضتها: «ولمن سينصتون؟ ليس لي. أنت! أنت من يجب أن تخبرهم!»

كانت الغنمات وراءها تثغو وقد فقدت صبرها، وساحم ينبح.

استدارت أماني في الوقت المناسب لترى العنيد وهو يبتعد عن الدرب، يقفز من على الحائط ويهم بالاندفاع نحو الواحة باتجاه حوض الشرب، وتبعه باقي القطيع. وساحم يركض وراءه. وحدها الناجية انتظرت الراعية.

رفعت أماني الحمل من الدرب، وتزحلقت بين الصخور مع الناجية إلى أعلى الحائط.

كان نصف أماني ما يزال وراءها يجادل جوناثان، ونصفها الثاني يراقب الناجية وهي تلحق بالقطيع.

تجمعت الغنمات حول الحوض الصغير، فيما كان ساحم ينبح وينبح وينبح على أماني لتأتي.

هناك خطب ما.

ركزت أماني كل انتباهها على المشهد المحيط بالحوض، وشعرت بالفزع فجأة.

غرائز الراعي في داخلها كانت تصرخ: أسرعي.

حبيبات بلاستيكية صغيرة زرقاء متناثرة تحت قدميها المتخبطة فوق الحرش كله. من أين أتت؟ من الذي صب الماء في الحوض؟ إنها لم

تملأه هذا الصباح.

مسحوق غريب مترسب في قعره.

وأشهرت عصاها لتدفع بأغنامها بعيدًا.

«كفى!» صرخت بها. دفعتها بعيدًا ورمت بثقلها على الحوض. اهتز الحوض قليلاً. وتراشقت بضع موجات على جوانبه.

وصل جوناثان بعدها ببضع ثوانٍ. ركض إلى الجانب المقابل صارخًا: «إنه ثقيل جدًا. ساعديني وادفعي من هذا الجانب. من هنا يميل للأسفل.»

وشقت طريقها بين الغنمات حتى وقفت بجانب جوناثان، وكتفاهما على الحوض. ثم أخذا يهزانه حتى انقلب. أريق الماء في كل اتجاه لينقع الأرض. وتبعثرت الغنمات في المكان ورؤوسها إلى الأرض باحثة عن الكلأ.

آه، لا. حملقت أماني فيها مكسورة الخاطر. كم شربت؟ ماذا كانت تأكل؟

«تلك الأشياء الزرقاء. لا تسمح لها بالأكل.»

ثم أخذت تلوح بعصاها وتسوق القطيع خارج الحرش إلى كرم الزيتون، يساعدها ساحم وجوناثان من على الجانبين.

لم يعد هناك حبيبات زرقاء على الأرض. ووقف جوناثان عند صف أشجار الزيتون الأول.

«لم يعد أحد منكم بأمان الآن»، قال بصوت كسير. «إنهم لا يريدونكم قريبًا من المستوطنة. بل يريدون ماءكم وأرضكم. لا أصدق أنهم فعلوا ذلك. أحس بالقرف مما يفعلونه.»

لم تكن أماني تعرف الكلمة الإنجليزية المرادفة للسم، كما كانت أكثر قلقًا من أن تتكلم.

«لم يعد بإمكاني الذهاب أبعد»، قال والحزن بادٍ عليه: «ربما هم يراقبوننا الآن. إن اختفيت عن أنظارهم في كرمكم، فسيأتون ببنادقهم.»

أومأت أماني، «أريد أن أساعد غنماتي.»

لا أحد منهما استطاع أن يقول الحقيقة. إن كان الماء مسممًا، فسيكون قد بدأ يُبْلي داخل أجسادها. ركضت أماني لتجد والدها. إنها تحتاج هاتفه لتتصل بالبيطري الحكومي، على الرغم من أن حدسها أخبرها بما سيقوله لها.

لقد فات الأوان. ما من شيء قادر على إنقاذ غنماتها الآن.

[26]

مرت عدة ساعات قبل أن تتمكن أماني من الاتصال بالبيطري من هاتف أبيها. كانت غنماتها هادئة على غير العادة، وكان ذلك الشيء الوحيد غير المعتاد الذي استطاعت أن تخبره به.

«ليس بمقدورك أن تعرفي ماذا كان ذلك أو كم كان تركيزه أو كم ابتلعت منه كل غنمة»، نبهها البيطري، «اتركي الكثير من الماء العذب بجانبها. لم يعد هناك ما تستطيعين فعله الآن سوى الانتظار ثماني وأربعين ساعة.»

ساعدها الأب في نقل دلاء الماء من البئر إلى الحظيرة. وألح عليها أن يمضيا الليلة في الدار. وكان أبوها هو من أيقظها في الصباح ممتقع الوجه.

العنيد وخمس نعاج ماتوا ليلاً.

«أيها؟» سألته أماني باكية وهي تعبر الوادي الذي يغمره السكون على نحو غريب. لم تعد تسمع صوت الأذان ثانية. لا أغنام تثغو طلبًا للخروج. كان أبوها بجانبها يهز رأسه غير عارف بأسمائها.

لكن ما الفرق؟ كانت تحبها كلها.

كانت الأغنام الميتة مستلقية في مكانها حيث هوت في الليل، وأوصالها متيبسة. الذباب يحوم في المكان. رومانيا وقفت بلا حراك، والإسهال قد

لوث إليتها. وعند الباب، قبعت الناجية بجانب حمل آخر ينتظر أماني.
كانت أصواتها عويلاً رقيقًا. تقطع قلب أماني من المنظر أمامها.
رمت بالباب لفتحه وجثت، ثم قربت الحملين منها واحتضنتهما.
حاولت تخيل ما الذي كان سيقوله سيدو لو كان حاضرًا، «أنت مرعوبة من أجسادها الميتة. سنخرجها، وستنسين. سيكون كل شيء على ما يرام.»
تبعها أبوها والحملان إلى البئر. أما رومانيا فكانت منهكة أكثر من أن تستطيع الحراك أو الشرب حين صبّا الماء العذب أمامها. احتضنتها أماني بحنان. لكن عيني رومانيا كانتا متحجرتين ولم تتمكن من إبداء أي رد.
أخذت أماني الحملين إلى مربط الحَلب، وأغلقته عليهما لإبعادهما قليلاً عما حدث، وكومت أمامهما أخشابًا وصفيحًا إلى ارتفاع يكفي لحجب منظر الموت والاحتضار. وحين عادت إلى المنطقة الوسطى في الحظيرة، كانت رومانيا مستلقية على جانبها، وبالكاد تسحب أنفاسها. وجثت أماني بجانبها.
بدأت النعجة التي كانت قوية وصلبة ترتعش.
«تلفظ الروح»، همس أبوها.
وضعت أماني يدها على ظهر رومانيا الأسود. وحين توقف الارتعاش، توقف فجأة.
«كانت أفضل نعجة سبق وأن ربيناها»، قالت أماني، محاولة أن تمنع نفسها من البكاء. «مواليدها كانت قوية ومعافاة، كما كانت أمًا جيدة.»
كانت أصابع أماني متغلغلة عميقًا في صوفها المتشابك. سحبت

أصابعها ببطء، كان جلدها رطبًا وتفوح منه رائحة زيت الصوف.

غطت وجهها بيديها وبكت.

انتظر الأب دون أن يقول شيئًا، ليعطيها الفرصة.

ثغاء الحملين الواهي ذكرها بأن أمامها عملاً ينتظر أن تقوم به. فمسحت عينيها ووقفت.

«الحملان لم يشربا من الماء ولم يأكلا أي حبيبات»، قالت لأبيها.

وأشاح بوجهه: «ربما لا. ستتأكدين من ذلك غدًا.»

يجب إخراج الجيف من الحظيرة، وبسرعة. وأشارت أماني نحوها.

«أتستطيع أن تساعدني في حملها للخارج؟ يجب أن نفعل ذلك الآن.»

توتر الأب، «لقد اتصلت بأبي نادر يا أماني. أرادت وردة ورجاء أن تأتيا لأخذك إلى المدرسة هذا الصباح. أخبرتهما أنك بحاجة لبعض الوقت في الحظيرة. أبو نادر سيأتي بإخوته لمساعدتي.»

هزت أماني رأسها: «أنا الراعية. وأنا من يجب أن أدفنها.»

«ليس هذه المرة»، قال أبوها. كان صوته منكسرًا. شعرت أماني بأنه قد اتصل بأمها. «دعيني أقوم بذلك أنا. اذهبي إلى المدرسة، وحين تعودين يمكنك أن تعتني بحمليك. سأذهب إلى الخليل. لدي صديق استطاع استخراج إذن عبور لأمك. أنا واثق أنها ستكون هنا الليلة مع عمر.»

وصلت أماني للمدرسة متأخرة، وجلست صامتة آخر الصف. كان ذهنها يعود مرارًا وتكرارًا للمشهد في الحرش، وغنماتها وهي تقفز من على الحائط وتنطلق في اندفاعتها المميتة نحو حوض الماء.

في حصة الإنجليزية كتبت الآنسة عبوشي كلمة رمضان على السبورة.

كانت البنات منكبات على مقاعدهن حول أماني لكتابة قصائدهن الجديدة. حملقت أماني في الورقة البيضاء، لترى ظهور غنماتها البيضاء المتيبسة ثانية.

«أماني؟ ما خطبك؟ أماني؟» ثم علا صوت الآنسة عبوشي.

من بعيد سمعت أماني اسمها.

جثت الآنسة عبوشي بجانب مقعدها. كل صديقاتها وقفن بجانبها. لمَ كُن يحدقن بها؟ تردد صدى سؤال معلمتها في رأسها. ما المشكلة؟

«أغنامي.»

«طيب؟» قالت الآنسة عبوشي، وهي تومئ، «ماذا حدث لأغنامك؟»

أخبرتهن. حتى داليا بكت.

سمعت أماني صوتًا بداخلها يناديها.

أسرعي.

انسحب كرسيها على الأرض وراءها وهي تقف مرتعشة. أفسحت البنات لها الطريق ومشت بينهن إلى حيث علقت معطفها على مشجب.

«ما خطبك يا أماني؟»

«لا أعرف. يجب أن أذهب للدار.»

[27]

واصلت أماني الركض حتى وصلت مكان التقاء الرصيف بالدرب الترابي. وبعد بضع خطوات انكشف أمامها مشهد الوادي بأكمله، فرأت قمة سيدو أمامها مباشرة، ووجدت حشدًا من المستوطنين جالسين مباشرة وراء السياج.

وارتخت ركبتاها.

على ذلك الجزء المنتفخ من الأرض ـ أسفل جبل سيدو ـ كانت معظم أشجار الزيتون مقطوعة. وبقايا جذوعها مغروسة في الأرض على المدرجات العليا وكأنها شواهد قبور. وهناك شاحنتان محملتان بالأغصان المقطعة تتحركان للغرب على طريق المستوطنين. أما أسفل الكرم فكانت جرافة تحمل شجرة صغيرة مقتلعة، وما تزال كتلة التراب حول جذورها على حالها، لتضعها على شاحنة منبسطة السطح.

صرخت أماني بصوت عال، ولفت يديها بقوة حول بطنها وهي تنظر لما يحدث.

كل شجرات تين سيدو بجانب كرم الزيتون ملقاة على الأرض، وحفارة صفراء ضخمة تحطم آخر جدار ما يزال منتصبًا في دار جدها، وما بقي من الدار المدمرة قد تحول إلى ركام يكسوه الغبار. ولم يتبق

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

من المصطبة إلاّ بضع درجات، تقود إلى كومة من الكتل الإسمنتية المتقصفة والحطام. أما دار عمها هاني فكانت ما تزال على حالها في الجهة الأخرى من الدرب، تنتظر دورها.

الحملان.

أحست أماني بالذعر، ولم تتمكن من رؤية الحظيرة؛ لأن الأشجار الملقاة على الأرض حجبت عنها الرؤية. كانت قد حبست الحملين خلف الحظيرة. هل يمكن للجرافة أن تدمر حظيرة أغنام صغيرة وفارغة؟ أرادت أن تركض لترى ما حل بها، غير أن جرافة ضخمة أسفل منها تمامًا على جانب الوادي، كانت تهدر وهي تتقدم نحو أشجار فاكهة أمها، فيما كانت سيارات الجيب العسكرية متوقفة على كتف الطريق السريع. وشاهدت الضابط القصير عند طرف الدرب.

أطاحت حفارة الكاتربيلر الصفراء بشجرتي جوافة بمجرفتها الضخمة. ثم استدارت قمرة الحفارة مئة وثمانين درجة. وأخذت تتقدم نحو دارها، وذراعها الضخمة ممدودة في مقدمتها.

«توقف!» صرخت أماني، وهي تشعر بأمعائها تتقطع.

غاب مخلب الكاتربيلر في واجهة دارها، وتشعبت التصدعات مثل البرق في السقف. رأت الخطوط المتقصفة خلال جزء من الثانية قبل أن ينهار جزء من السقف، ثم ارتفع الغبار الأبيض فوقه. ومن قلب الغيمة البيضاء عادت وظهرت ذراع الحفارة الصفراء، ثم تحركت الكاتربيلر للخلف لتدوس شجرتي ليمون، وبعدها زحفت إلى الأمام لتجهز على الجزء التالي من الدار.

طوفان من الأدرينالين اجتاح عروق أماني. فكري. فكري. ما الذي

ينبغي أن تفعله؟ أين أبوها؟ الخليل. هي الوحيدة الموجودة هنا من العائلة. بيانو أمها موجود بجانب الباب. إن تمكنت من منعهم من تدمير بقية الدار، فربما تستطيع إنقاذ البيانو.

أحست بأن الحقيبة على ظهرها مثل الحمل الثقيل، فرمتها على الأرض. واستدعت لمخيلتها الذئب: كيف يركض، ويقفز نازلاً السفح، واثق الأقدام. لم يعد أمامها ثانية لتضيعها. هدير محرك الكاتربيلر الطاحن يملأ أذنيها، وغبار الإسمنت يملأ أنفها وفمها. سعلت، وغطت وجهها بكمها وهي تركض إلى الجانب الشرقي من دارها، وتلوح بيدها الأخرى في الهواء.

كان السائق يجلس في قمرته المغلقة. أدار رأسه لينظر إليها ويتحدث في جهاز أمامه قبل أن يستدير بالكاتربيلر ليواجهها. أخذت تقفز في مكانها وتشير بيدها إلى دارها وإلى نفسها. ضمت كفيها. قف، أرجوك قف.

امتد ذراع الحفار بمخلبه الضخم إليها، واقترب منها وأخذ يلاحقها!

نظرت نحو الدرب، فرأت أربعة جنود يركضون نحوها. بسرعة. الحفارة ستتوقف إن دخلت أماني الدار.

عبرت أماني الدرج ببضع قفزات، وأدارت مقبض الباب ودفعته. كان الباب قد التوى وعلق في إطاره، ألقت بثقلها عليه، وأخذت تضرب بجسدها على الخشب.

أمسكت بها أيدٍ قوية من ذراعيها. وعلى الرغم من مقاومتها، أمسكت بها أيدٍ أخرى من كاحليها. حملها أربعة جنود لأسفل الدرج، ثم إلى الدرب. أخذت تحاول التملص منهم بعنف، واستطاعت أن تخلص

نفسها من الجندي الذي يمسك بكاحلها الأيسر. ضربت بكاحلها في الأرض وسمعت سيلاً من الكلمات العبرية من الجهات الأربع. وقبل أن تتمكن من الإفلات، قلبوها على وجهها وثبتوها على الأرض. رفعت رأسها في الوقت المناسب لترى ذراع الحفارة ومخلبها ممدود داخل النافذة الكبيرة في واجهة دارها.

«لا!» صرخت.

تهاوى الجدار حول النافذة عندما استقامت الذراع وارتفعت، وتدفق الغبار مثل الغيمة. وارتفعت الذراع مخترقةً السقف، وهوت واجهة الدار بأكملها.

«هذه دارنا!»

تحدث أحد الجند بالعربية: «ابقي بعيدة عن الدار ولن يصيبك أذى.» تحول انتباه الجنود وأماني من الدار. إلى كتف الطريق السريع، كان الأب يسرع نحوهم وهو على حماره، يصرخ ويلوح بإحدى يديه بشكل هستيري.

عند أول الدرب استدار الضابط إلى أحد الجنود الذي صوب بندقيته وأطلق الرصاص.

وقع الحمار، وتدحرج أبوها على الأرض.

«أبي!» صاحت أماني.

أمسك بها الجندي بقوة لمنعها من الركض نحو أبيها.

استلقى الحمار ينزف في مكانه حيث سقط. أما أبوها فجثا على ركبتيه يحاول الوقوف، وبعدها لم تعد أماني قادرة على رؤيته من الجنود حوله. أحذية عسكرية ترفس، وبندقية ترتفع. وبعد ثوانٍ تحركت

ستارة الجنود المحيطة به ولمحت جسد أبيها المنهار. سحبه الجنود وراءهم نحو عربة مصفحة. وسمعت صفقة الباب وهو يغلق.

زمجرت الحفارة بجانبها متقدمة لتعبر الدرب. ثم تركها الجنود. رفعت أماني جسدها لتجثو على ركبتيها. كل ما قدرت على التفكير به هو أبوها. رأت العربة التي أخذته تمضي مبتعدة على الطريق السريع. جاهدت أماني نفسها لتقف على قدميها.

لم يعد الجنود يبالون بما تفعله، وبدأوا يصعدون إلى سياراتهم.

مشت أماني على الدرب وهي تعرج. لقد أخذوا أباها إلى السجن، ولم يعد بمقدورها الآن تقديم أي عون له.

لكن ما يزال هناك شيء عليها أن تفعله. ما هو؟

الحملان.

دمروا دار سيدو، وهدموا جدارين في دار عمها هاني، ثم نظرت ثانية لترى أن جزءًا كبيرًا من السقف انهار.

الحفارة التي هدمت دارها كانت تتوجه نحو كرم الزيتون. حدقت أماني في الحرش. لقد قال جوناثان إنهم يريدون تحريك السياج للأسفل.

إن عثر المستوطنون على الدرب الخفي، فما الذي سيفعلونه بالفردوس؟

عبرت أماني الطريق السريع، غير أنها بدلاً من الذهاب في درب سيدو، مشت ببطء وحذر على امتداد كتف الطريق السريع.

حديقة ورود العمة فاطمة كانت مسحوقة تحت جنازير الجرافات.

نزلت أماني على الأرض وبدأت تتحرك خلسة عبر الحديقة نحو حظيرة الغنم. كان سياجها مخلوعًا وراء شجرة تين مقلوعة. زحفت فوق الباب المعدني نحو كومة الخشب وبقايا الصفيح، حيث كان

مربط الحَلبِ موجودًا ذاك الصباح.
أزاحت الحاجز الذي كانت قد وضعته. كان الحملان يقبعان تحته أحدهما بجوار الآخر، على قيد الحياة. وراءهما رأت عصا سيدو. اندفعت الناجية نحوها، وتبعها الآخر.
احتضنتهما أماني: «ابقيا قريبين مني. تستطيعان ذلك؟ يا الله.»
التقطت أماني عصاها وركضت مغادرةً الحظيرة. وعند طرف حديقة العمة فاطمة، قريبًا من المدرجات، شاهدت شيئًا بنيًّا مستلقيًا وسط بركة من الدم، بجانب شجرة تين أخرى مقطوعة.
توقفت أماني، غير قادرة على أن تخطو خطوة أخرى.
إنه ساحم. صريع بالرصاص.
على مدى الشهور والساعات الأخيرة أصبح قلبها يقسو مع كل خسارة إضافية: طريق سريع في قلب كرم عنبهم، مستوطنة على قمة سيدو، العم هاني سجين، أبوها أخذوه، دورهم مهدمة، كرم الزيتون قلعوه. أصبح قلبها ثقيلاً وممتلئًا مثل برميل بارود، ومنظر ساحم أشعل عود الكبريت. انفجر الغضب داخل أماني، طاردًا منها الخوف.
لم يتبقَ سوى شيء وحيد. الفردوس.
خذي نفسًا، سمعت صوت سيدو.
رآها الحملان وهي تلتقط حجارة وتدسها في جيوبها.
«ابقيا قريبين مني»، قالت وتوجهت نحو كرم الزيتون المقلوع.
على سفح التلة فوقها، إلى الأمام منها، أصبحت الأرض خاوية من الجذوع والأغصان، والمدرجات العليا تبدو مثل مقبرة لبقايا الأشجار المتناثرة. وبقيت أسفل التلة حفارتان تواصلان قلع الأشجار الصغيرة.

أما الحفارة الصفراء الكبيرة التي هدمت دارها، فكانت تواصل العمل وحدها لإخلاء النصف السفلي من سفح التلة إلى الأسفل منها مباشرة. فوق جنازيرها العملاقة، كانت مجرفة الكاتربيلر الضخمة تتأرجح وتجرف الأرض لتقلب الأشجار العتيقة جانبًا.

أخذت أماني حجرًا من جيبها وصوبت نحو قمرتها المحمية. أصاب الحجر إحدى زواياها وارتد عنها. غير أنه جعل السائق يتوقف عن العمل لينظر أسفل السفح.

ثم رمت بحجر ثانٍ. لكنها هذه المرة أصابت إحدى نافذتيه، فاستدار السائق ورأى أماني.

ورمت أماني بحجر ثالث.

زاد السائق سرعة دوران المحرك، ثم أدار الجرافة نحوها. انتظرت أماني، وهزت له بعصاها. وحين تأكدت أن مخلبه المعدني الضخم آتٍ نحوها، استدارت نحو أعلى التلة، والحملان قريبان منها. زمجر المحرك.

وما إن وصلت أماني قمة التلة، حتى استدارت ورمت بحجر آخر، هذه المرة أصابت الهدف وبقوة فقد شرخت النافذة الأمامية. ورفعت قبضتها، فرد عليها السائق بأن لوح بقبضته.

لم يعد هناك الآن من يوفر المساندة لأي منهم. ساقت أماني الحملين أمامها نحو الحائط الحجري الاستنادي الطويل، ثم نظرت وراءها لمرة واحدة. نعم. المخلب الضخم يلاحقها.

رفعت الحملين على الحائط. فقدا التوازن قليلاً على الصخور، ثم توقفا.

«يا الله!» صاحت أماني.

انحنيا للأمام، ثم قفزا واختفيا. أصبحا في الدرب الخفي، على أمل أن يتذكرا نبعًا ومرجًا، ويصعدا ليصلا إليهما.

دخل الحفار أرض الحرش متمايلاً، وهو يتقدم وراءها.

صعدت أماني الحائط. وما إن أصبحت عليه حتى لمحت سروال الجينز الأزرق- جوناثان- يركض نازلاً على أرض الحرش من جهة حوض الماء نحوها. كان يلوح للسائق ويصرخ عليه.

لم يكن لديها وقت لتشرح له ما الذي تفعله، أو لماذا.

رمت أماني حجرًا آخر، وهي تحسب كم ثانية تفصل بينها وبين المخلب الضخم. ست ثوانٍ. رأت وجه السائق محمرًا وفمه يتحرك.

خمس. من مكانه هناك داخل قمرة الحفار، لن يكون قادرًا على رؤية ما يسحقه ويطحنه: الحائط الحجري، وإن فشلت خطتها فسيسحق لحم أماني وعظامها أيضًا.

تخيلت أماني كيف يمكن لذئب أن يقفز في الهواء.

ثلاث... امتدت المجرفة نحوها مثل الموت... اثنتان... استدارت أماني، وشمت رائحة الحديد...

واحدة. قفزت أماني.

[28]

لم تأتِ القفزة مثلما كان مخططًا لها. لم تهبط أماني وراء الصخرة التالية، بل نزلت عليها. ثم قفزت إلى الدرب. وبالكاد لمس كعباها الأرض. وراءها كانت الأرض ترتج بعنف. وتابعت أماني الركض محافظة على مسافة بينها وبين الكاتربيلر التي قد تسبب انزلاقًا للأرض تحت قدميها.

سرقت نظرة للخلف. صخور تتكسر وغبار وتلة من جلاميد الصخرة المتدحرجة.

هربت صاعدة الدرب بسرعة، وهي تركض مذعورة، حتى اختفت عنه وراء حافة سنام الجمل.

هل ابتعدت بما يكفي؟ نعم. نظرت للوراء. الغبار والكاتربيلر غابا عن نظرها. وفورًا أبطأت سرعتها، واتكأت على عصا سيدو وهي تشهق لتسحب أنفاسها.

لم يمضِ وقت طويل حتى تمكنت من اللحاق بحمليها. كان أضعفهما قد توقف غير قادر على متابعة المشي. أما الناجية فكانت تنقره بأنفها وتثغو. حملت أماني الحمل تحت إبطها. كان عمره سبعة شهور، كبير بما يكفي ليكون متعبًا عند حمله. أخذت أماني تُنَقِّله من ذراعها المتعب

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

إلى الآخر، حتى وصلت أخيرًا الأرض المنبسطة على الهضبة.
تطلعت في الهضبة وتساءلت في نفسها عما إذا بقي لديها ما يكفي من الطاقة لتصل الفردوس. رفعت الحمل الضعيف على كتفيها، واتكأت على عصاها. أحست بدفء خشب الزيتون تحت أصابعها. مشت ببطء، وهي تحمد الله على أن الناجية كانت قادرة على المشي دون مساعدة.
صعود الدرج كان مرهقًا. تسلقت درجة بعد درجة، وهي تضع عصاها فوقها ثم تسحب نفسها. وتتوقف قليلاً لسحب بضعة أنفاس قبل أن تحاول صعود الأخرى. ثم انفتح المرج أمامها، أخضر يضج بنور الشمس. أعلى السفح رأت الذئب مع عائلته.
ركضت الناجية إلى عين الماء ولم تمنعها أماني وهي تتساءل عما سيفعله الذئب. راقبت وانتظرت.
ثم تقدمت إلى عين الماء ووضعت الحمل بجانب الماء، آملة أن يشرب على الأقل. لكنه لم يفعل.
وجثت أماني وقد غلبها العطش بجانب الماء، وسمت بسم الله الرحمن الرحيم. غسلت يدها اليمنى ثم اليسرى، وشربت. الماء البارد حلوٌ وعذب، أنعش روحها. شربت وشربت إلى أن تقدمت الناجية نحو المرج لتأكل، غافلة عن كل شيء حولها.
تبعتها أماني وتركتها تأكل قدر ما أوتيت من جرأة. وأدارت نظرها من على الحمل الضعيف بجانب عين الماء إلى الأعلى لتحدق في الذئاب.
«تركت لكم واحدًا»، قالت، ثم ساقت الناجية خارج المرج.

[29]

دارت أماني حول سنام الجمل وبدأت تنظر إلى الصخور. أصبحت الشمس جمرة صغيرة حمراء عند الأفق الغربي. وتعثرت قدم الناجية وكادت تسقط حيث وقفت. رأت الطريق أمامهما مسدودًا في المكان الذي تدحرجت فيه الصخور واستقرت بعد هجمة الحفار.

قدَّرت أماني المسافة التي يجب أن تنزلها على الصخور حتى تصل الحائط بعشرين مترًا. فهل ستكون آمنة؟

شاهدت ظلاً متموجًا على بقعة من الأرض في الحرش تحتها، وشيئًا طويلاً، ربما بندقية، موضوعة على الأرض بجانبه.

أهو مستوطن؟

بحذر وهدوء، نزلت أماني على الصخور مع الناجية. الشيء الطويل لم يتحرك.

نزلت بحرص تخطو من وسط صخرة إلى أخرى، وهي تشعر بالارتياح لأنه لم يتحرك، ولم يتحرك الظل الموج، أيضًا. ثم توقفت حينما وصلت إلى كومة الركام التي كانت سابقًا الحائط الحجري الاستنادي. الظل كان جوناثان. وجدته يقعد على الأرض متربعًا ومنحنيًا للأمام، وكأنه شخص ظل ينتظر طويلاً في جو بارد رطب.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

كانت سعيدة جدًا حين رأته.

«جوناثان!»

رفع كتفيه. تنهد ثم قفز على قدميه.

«آه! يا إلهي!»، قال وهو يمشي نحوها: «فلسطين! ما زلت على قيد الحياة!»

مستندة على عصاها لتثبت نفسها على الصخور المتكسرة، نزلت أماني وخرجت من وسط تلك الفوضى. ومد جوناثان يده لمساعدتها، وهو يبتسم كالمجنون.

«كنت طوال الوقت أصلي أن تكوني قد وصلت الدرب. لم أتمكن من الرؤية بسبب الغبار. لمَ فعلت ذلك؟»

«جدي كان راعيًا»، قالت، «أبقى أمر ذلك الدرب سرًا. وكان عليَّ أن أفعل الشيء نفسه. هل يعرف المستوطنون بأمره؟»

«أنا فقط.»

«إذًا لن يكون من السهل عليهم أن يجدوه.»

سحبها نحو صرّة طويلة منتفخة. اضطر أن يترك يدها ليلتقط الصرّة، ومع أنها أسفت لذلك، إلا أنها ارتاحت أيضًا.

«أتيت لك ببطانية. تستطيعين أن تحملي حَمَلك؟ ما يزال هناك سم في المكان. أين تريدين الذهاب؟»

«هل يراقبوننا؟»

هز رأسه: «إنهم يحتفلون.»

مشيا صامتين حيث كانت مدرجات الزيتون. كاد الظلام يهبط، ورائحة الديزل ما تزال عالقة في التراب. كما تعرى سفح التلة سوى

من الجذوع التي كانت أشجارًا واكتفوا بقطعها بدلاً من اقتلاعها. لم تعد هناك حديقة ولا درب، لكن أقدام أماني تعرف الطريق.

ثم شمت رائحة صخرة رطبة ما جعلها تضحك. المغارة! دار الأجداد لم تهدم. كان للعثور على المغارة وقع نعمة صغيرة في نفسها. لكنها تعثرت بشيء ووقعت على الأرض.

«أنت بخير؟» وشغل جوناثان مشعلاً، وجال بشعاعه حتى وقع على أماني.

نظرت أماني إلى تنور ستي بجانبها: «جدتي ستكون مسرورة. ألا يجب أن تطفئ المشعل؟»

«نحن مخفيان عنهم هنا وراء التلة، أظننا نستطيع إشعال نار دون مجازفة. لقد أحضرت طعامًا.»

ذكر الطعام جعل أماني تتذكر أنها لم تأكل شيئًا طوال النهار، وربما أطول. كانت عصبية. لكن هناك شيئًا ينبغي أن تقوم به قبل أي شيء آخر.

«هل تعطيني مشعلك؟»

وناولها المشعل. ثم دخلت المغارة وخرجت منها وبيدها رفش.

ساعدها جوناثان في دفن ساحم. لم يستغرق الأمر وقتًا طويلاً، وكانت سعيدة برفقة جوناثان الصامتة، سعيدة بعد أن انتهت من الدفن.

جمعا حطبًا، وسرعان ما جلسا على كرسيين مكسورين أمام النار المضرمة يأكلان الفلافل. وفتح جوناثان علبة كرتون، وصب بعضًا من السائل في فمه المفتوح للأعلى، ثم أعطى علبة الكرتون لأماني.

«اشربي. حليب بالشوكولاته.»

شربت السائل الكثيف الحلو. لم يكن طيبًا مثل ماء العين، هكذا شعرت، لكنه لذيذ ما دام قد فكر بأن يأتي به.

«أين عائلتك؟» سألها.

أخبرته، «سأنام في المغارة الليلة. ومع طلوع الضوء سأذهب إلى القرية، وبعدها يجب أن أبحث عن أبي.»

حدق في اللهب أمامه، وكسر عود حطب في يديه، ثم رمى بنصف بعد الآخر في النار.

«سأعود إلى نيويورك.»

لم تكن تريده أن يذهب.

«لماذا؟ أنت جبان؟»

انتفض مشيحًا بوجهه: «أبي نعتني بذلك. قال إن اليهودي الحقيقي يدافع عن الأرض المقدسة. أنا لم أعد أعرف ما الذي يعنيه أن أكون يهوديًا حقيقيًا. جدّاي رأيا الكثير من اليهود يموتون في المعسكرات. كانا يؤمنان بأرض مقدسة يكون فيها اليهود آمنين، لكني لا أستطيع أن أصدق أن هذا ما كانا يعنيانه». ثم هز رأسه قائلاً: «حين رأيت الحفار يلاحقك...» وانكسر صوته.

تذكرت أماني كيف ركض لإيقاف الحفار. لقد جلس في برودة الحرش حتى عادت. لو كان كل المستوطنين أكثر شبهًا بجوناثان والحاخام الذي يعرفه أبوها، فربما أمكنهم أن يتوصلوا إلى حل.

«أنت لست جبانًا، أقول ذلك لأني لا أريدك أن ترحل. أنا خائفة من المستوطنين. وخوفي سيكون أقل إن عرفتُ أنك بينهم هناك.»

«لم أعد أستطيع البقاء في المستوطنة. في كل يوم أتخيل كيف كانت

حياتك قبل المستوطنة. أتخيلك وأنت تسرحين بأغنامك .مثل أول يوم شاهدتك فيه. لا سياج ولا جنود، ولا طريق سريع فوق أرضكم. المستوطنة دمرت حياتكم. إن عدت إلى نيويورك أستطيع أن أتحدث عنكم وعمّا رأيته. ينبغي أن تتخيليني في نيويورك.»

واصل النظر إليها: «أنت أعظم بنت رأيتها طوال حياتي. أتمنى... أتمنى أشياء كثيرة.»

تمنت لو تستطيع أن تقول له كم تشعر بالمودة نحوه.

«ومتى سترحل؟»

«غدًا. أود أن أبقى معك الليلة، لكني إن لم أرجع للمستوطنة سريعًا فسيظنون أنكم قتلتموني ويرسلون بالجيش ليبحث عني في القرية.»

«أنا هنا بأمان في المغارة. جدي كان ينام هنا مع أغنامه حين كان صبيًا. شكرًا على البطانية والطعام.» وتمعنت أماني في وجهه لعلمها بأنها ستكون مضطرة لاستذكاره قريبًا: «أتريد أن تعرف شيئًا قبل أن ترحل؟»

اللهفة في عينيه جعلت قلبها يلتقط الصورة. هذه هي الصورة التي ستذكره بها. شعر طويل يغطي أذنيه، ابتسامته العريضة، كتفاه العريضان المنحنيان للأمام.

«اسمي أماني، ويعني الأمنيات، لكن عندي واحدة ليس غيرها...»

مليار نجمة أنصتت لأماني وهي تقرأ لجوناثان القصيدة التي كتبتها في حصة اللغة الإنجليزية، عن قصة ولادتها.

[30]

استيقظت أماني وهي متكورة بجانب الناجية الدافئة، مبتسمة. موسيقى. كانت متأكدة من أنها سمعت موسيقى.

فتحت عينيها في جو من الصمت.

عادة ما تستيقظ على صوت الأذان. أكان ذلك هو ما سمعته؟ لكنه بدا لها أشبه بصوت بيانو.

رمت بالبطانية ونهضت محتارة. وقفت في مدخل المغارة المظلم، وأخذت تصحو من حلم رائع بأمها وهي تعزف على البيانو.

ضوء النهار أعادها فجأة إلى الواقع.

أمامها تقبع بقايا دار سيدو، أغصان أشجار الفاكهة المتكسرة، كل شيء مكسو بغبار الإسمنت الأبيض. وعلى الجانب الآخر من الطريق السريع لم تختلف حال دارها عن ذلك: كومة من كتل الإسمنت المتقصفة والمحطمة.

وأخذت الناجية تثغو لها من الجوع والعطش. وقعت يد أماني على دلو فملأته من البئر، ثم عبرت الطريق السريع مع الناجية نحو بقعة فيها القليل من الخضرة.

«أماني!» ناداها صوت من جوف دارها المهدمة. نظرت نحو ذلك

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

الشكل المستطيل المشوه. أحد طرفيه كان أعلى من الآخر.
أكان ذلك رأس يطل من الوسط؟ أهي يد تلوح؟
«أماني!»
اختفى الرأس ثم عاد وظهر من بقعة أخرى داخل الدار المتهاوية. كان هناك شخصان يظهران من القشرة المكسرة لدارها. امرأة، برأسها المنحني، أخذت تتسلق بحرص بين قطع السطح المتكسرة. عرفت أماني خصلة الشعر الشقراء تلك.
«أمي!» صاحت أماني وهي تركض إليهما، «عمر!»
تقابلوا على كتف طريق المستوطنين السريع. عانق بعضهم بعضًا، تمايلوا معًا ثلاثتهم في حلقة صغيرة. أجهشوا بالبكاء، حتى عمر. قبلت أماني أمها مرة بعد مرة، وهي تتمعن في وجهها غير مصدقة.
«متى رجعتما؟» سألت أماني.
وترك بعضهم بعضًا ليمسحوا دموعهم. لم تتمكن الأم أن تنهي جملة واحدة لكثرة ما كانت تبكي.
«عصر أمس»، قال عمر: «نصف أهل القرية أتوا معنا. وصلنا في الوقت المناسب لنراهم وهم يأخذون حِمل شاحنة من الأشجار ليبيعوها في تل أبيب. أخبرنا جندي بأن أبي هاجم الجيش من على حماره وأنهم أخذوه. وقال إن بنتًا مع غنمتين...»
أمسك عمر برسغي أماني اللذين كانا ما يزالان رخوين من يوم أمس، فصاحت: «آه! أنت تؤلمني!»
ترك يديها، «قال إنك جننت وهاجمت حفارًا. وقال إنك ربما تكونين ميتة.»

أجهشت الأم بالبكاء، «وجد أحدهم حقيبتك على درب الجبل. وإصلاح أجبرتنا على أن نذهب معها إلى القرية. لم أستطع النوم من القلق. أين كنتِ؟»

«اعذريني يا أمي. لقد اختبأت مع الحملين في التلال. ثم هبط الليل ورأيت أن النوم في المغارة أكثر أمانًا من محاولة الذهاب للقرية.»

ومدت أمها يديها وتعانقتا، «لقد فعلتِ الصواب.»

تذكرت أماني حيرتها وهي تستيقظ وتخرج من المغارة: «أفقتُ اليوم وأنا أسمع موسيقى. أمي، هل سمعتك وأنت تعزفين على البيانو؟»

مسحت الأم عينيها وضحكت. وأشارت إلى الطرف العالي من دارهم المهدمة: «كنا نبحث عنك. قطعة كبيرة من بلاطة السقف وقعت فوق ممر الصالة بجانب باب الدار الجانبي. من المدهش كيف أخطأها الحفار. كل شيء على جانبي الممر محطم. يبدو أن الدرج أمام الباب قد اعترض مخلب الحفارة.»

«أبي قال إننا بحاجة للبيانو من أجل أن نعيدك للدار.»

«لقد أعادني! انظري إليَّ! أنا في الدار. ولن أرحل عن هذا الوادي ثانية.»

ثم عادت أماني للبكاء وهي تحكي لهما ما حدث لأبيها.

«لقد أخذه الجنود مثلما فعلوا بعمي هاني. أظن أننا يجب أن نتصل بأصدقاء أبي الإسرائيليين والأجانب. هذا ما فعله أبي حين أخذوا عمي هاني.»

«وكيف سيمكننا أن نتصل بهم؟»

«إن عثرنا على دفتره الصغير الذي يستخدمه كدليل هاتف، فسيمكننا...»

«عندي أصدقاء في رام الله»، قال عمر بصوت عالٍ: «هناك طرق أخرى

للمطالبة بإطلاق سراحه.»

استطاعت أماني أن تقرأ ما في عينيه. إنه يقصد العنف. عرفت الغضب في نفس أخيها.

«تلك الطرق هي بمثابة حكم إعدام علينا جميعًا»، قالت الأم وهي تهز رأسها.

كانا يقتربان من شجار؛ ولهذا حاولت الأم أن تهدئهما.

«هذا لن يساعد أباك. أين كان يضع دليل هاتفه؟ يجب أن نتصل بأصدقائه، ثم سأذهب إلى السجن. هذا ما فعله أبوك. هل ستأخذني إلى هناك يا عمر؟»

أومأ عمر موافقًا على مضض: «كان يضع دفتره في درج مكتبه. سأذهب وأبحث عنه.»

«أحيانًا كان يضعه في جيب معطفه»، قالت الأم وهي تمشي نحو الدار معه. وثغت الناجية. كانت النعجة قد مشت مبتعدة تبحث عن كلأ. ومرت بهم سيارة. لم يكن بمقدور أماني أن تترك الناجية وحدها بهذا القرب من الطريق، ومشت نحوها على كتف الطريق السريع.

فجأة أحست أماني بقشعريرة خلف رقبتها. كانت تقترب من البقعة التي رأت فيها أباها آخر مرة. أحدهم كان قد أخذ جيفة الحمار من المكان، غير أن بقعة دم داكنة على حجارة الطريق المكسرة أمامها جعلتها تجثو على الأرض على كفيها وركبتيها.

تحسست بأصابعها على الحجارة. شيء ما كان هناك. ملأ الرمل أظافرها وهي تزحف فوق البقعة وتبحث. ثم لمست أطراف أصابعها شيئًا أملس، معدني الملمس. أمسكته براحة كفها، ومسحت التراب عنه.

ثم بصقت أماني على هاتف أبيها، وفركته بطرف الوجه الداخلي لقميصها لتنظفه قبل أن تضغط الزر الصغير. انفتح.

ثم أي زر؟ لقد شاهدت أباها وهو يفعل ذلك مئات المرات. ضغطت الزر العلوي الأيسر، وأضاءت الشاشة. القائمة. دليل الهاتف. قائمة أسماء. قرأتها بعناية.

ضغطت اسمًا مُعَلَّمًا، وملأ رقم الشاشة. ثم ضغطت الزر ثانية فسمعت رنينًا موسيقيًا. صوت نقرة.

«شالوم...» صوت رجل. لم تفهم ما الذي قاله. «مرحبًا»، قالت أماني بالإنجليزية، «اسمي أماني رحيم. أظنك تعرف أبي. أظنك صديقه.»

تحول الرجل للإنجليزية: «رحيم؟ أنت ابنة عارف؟»

«نعم، يا حاخام. أتى الجنود فكسروا دارنا وأخذوا أبي. أتستطيع أن تساعدني في العثور عليه؟»

تحدث الحاخام ببطء مع أماني، وحاولت أن تكرر في ذهنها كلمات لم تعرفها، ثم تبادلا التحية.

حملت أماني الناجية وركضت إلى الدار لتخبر بذلك أمها وعمر.

«الحاخام قادم، إنه صديق لأبي. وهو آتٍ لمساعدتنا.»

«حاخام؟» واتسعت عينا الأم.

«وعدني بأنه سيأتي اليوم. وهو لا يظن أننا يجب أن نذهب للسجن. لديه خطة.»

«أتريدينا أن نثق بحاخام؟» لم تكن نظرات عمر تدل على أن بمقدوره فعل ذلك أبدًا.

«نعم. يريدنا أن ننتظر هنا. وهو سيتصل بأصدقائه. قال إنه يأمل بأن يحضر...» وتمنت لو أن الحاخام كرر تلك الكلمة الغريبة التي لم تفهمها: «محامي إسرائيلي.»

هز عمر بقبضته. كانت تلك هي الحركة ذاتها التي اعتاد العم هاني عليها: «لا. سيكون لدينا محامٍ فلسطيني إن احتجنا محاميًا. ما الذي تعرفينه عن هذا العالم يا أماني؟ لا شيء. إنها فكرة غبية أن نطلب المساعدة من إسرائيليين؟»

واستدار مبتعدًا وهو يركل حجارة مبعثرة، ومضى راجعًا إلى الدار.

«أعطه بعض الوقت يا أماني»، قالت الأم: «لقد أمضى أسبوعًا طويلاً من القلق، وهو يتعرض للتفتيش والتوقيف على الحواجز العسكرية. إن ثبت أن هؤلاء الرجال أصدقاء لنا كما تقولين، فسيسايرنا. دعينا نرى ما الذي يمكننا أن نخلصه من الدار.»

بدأتا بأحد أطراف الدار لتبحثا بين الركام وتخلصا ما أمكنهما تخليصه. بضع قدور وصحون لم تتكسر في الخزانة. مناشف. ملابس من الخزائن المكسرة. المدفأة كانت موضوعة في خزانة ولحسن الحظ ما تزال قطعة واحدة. كما عثرت أماني على عدة فُرُش بحالة معقولة وسحبتها.

دون أي كلام أو تواصل بالعيون، أتى عمر ليساعدها. وأخذا يتبادلان الأدوار، أحدهما يمسك بمخدة مرتخية ليثبتها والآخر ينفضها بعصا مكنسة. أبقت أماني وجهها متجهمًا كتجهم وجه أخيها. أخذ غبار الإسمنت يتَفَلَّت ويطير، وفجأة سمعت أماني كلمات سيدو القديمة: امسحيه من قلبك.

رمقت أماني أخاها وهو يلوح بالمكنسة إلى الخلف، وقبل أن يهوي بها تركت أماني الفرشة فانقلبت وانقلب عمر عليها.

«يا ويلك!» صاح فيها وهو يثب ليقف على قدميه.

ضحكت أماني وهي تشير بيدها نحوه: «لقد هَرِمت في رام الله. شعرك شاب مثل شعر سيدو.»

بدت عيناه مثل ثقبين في وجه غباري أبيض إلى أن فتح فمه ليضيف ثقبًا ثالثًا. وابتسم لها.

«أعجبك؟ ترينني عجوزًا طيبًا؟ أتريدين أن تكوني طيبة أيضًا؟ أتريدين أن تكوني مثل ستي؟»

آه.. آه. إنها تعرف تلك الابتسامة. استدارت لتركض، لكنه أمسك بها. وكان على وشك أن يلقي بها على الفرشة المغطاة بالغبار لولا أن سيارة مغلقة بيضاء نزلت من على الطريق السريع وهي تطلق بوقها.

تركها عمر. ووقفت السيارة قبل كومة الركام التي تسد فتحة الدرب. نفض عمر الغبار من على وجهه وثيابه ومشى إليها. انفتحت أبوابها الأربعة ونزل منها ستة أشخاص. كان السائق يعتمر قبعة بيسبول حمراء ولوح لهم مبتهجًا. وأخذوا يفرغون صناديق من الباب الخلفي للسيارة. وناول أحدهم شتلتي زيتون لعمر.

«هل أنت الرجل المسؤول هنا؟»

أومأ عمر.

«في أي مكان تريد هذه؟»

قال عمر وهو يشير إلى المدرجات الخاوية على الجانب الآخر من الطريق السريع: «اتبعوني. سأحضر رفشًا.»

[31]

قبيل الظلام بقليل وقفت سيارة فضية عليها أثر صدمة وتحمل لوحة تسجيل صفراء في المكان الذي توقفت فيه السيارة المغلقة طوال العصر قبل أن تذهب. مشى عمر الدرب بخطوات مسرعة لمقابلة الرجل الذي يعتمر قبعة مدورة والراكب الذي معه، كانت امرأة ترتدي بدلة داكنة. ركضت أماني لتلحق بعمر وهي قلقة من الطريقة التي سيقابل بها ضيفيهما الجديدين. عرفت الحاخام بضفائر شعره البنية وهو يبتسم لعمر. لم يقابل عمر الابتسامة بمثلها.

ومدت أماني يدها بسرعة.

«أهلاً.»

صافحها الحاخام: «أكيد أنت أماني التي اتصلت بي؟ ما زلت أتذكرك من يوم المظاهرة. سأقول لك ما حدث. لقد مررنا على السجن داخل المستوطنة. لقد أخذوه إليه. ورأينا أباك»، تحدث الحاخام بعربية سليمة ولكن بلكنة أمريكية ثقيلة.

نبرته ولكنته كانتا تشبهان تمامًا طريقة حديث الآنسة عبوشي.

وعندها ارتاح قليلاً وجه عمر المتجهم.

«هل رأيت أبي؟» سأله عمر.

أومأ الحاخام وعرفهما على المحامية، والتي لم تكن تتحدث العربية على نحو جيد. ولهذا تحولوا إلى الإنجليزية. أخبرتهما المحامية بأنها قد رتبت لعرض الأب أمام المحكمة في وقت مبكر صباح الغد.

«علينا أن نقوم بشيء قبل أن يرسلوه إلى سجن آخر أو يرموه خارج الحدود. إن حدث ذلك فستصبح عودته للدار مستحيلة. يقومون بكل ذلك ليثنوكم عن المقـاومة.» ونظرت إلى أماني نظرة ملؤها الدفء والإعجاب: «كان تصرفك السريع عملاً ذكيًا جدًا. كما أن إنجليزيتك ممتازة.»

احمر وجه أماني خجلاً.

«وكيف هو؟»

«ليس سيئًا جدًا»، أجاب الحاخام: «بعض أضلاعه مكسورة، غير أن معنوياته طيبة. كان سعيدًا جدًا بحصوله على محامٍ.»

«وهل سيطلقون سراحه؟»

«سيعتمد الأمر على الادعاءات الموجهة ضده»، قالت المحامية: «لكنه لم يكن يحمل سلاحًا وكان وحده. رجل يسرع نحو داره التي يجدها فجأة وهي تهدم لن يكون مذنبًا إلا بالإسراع نحو داره.»

أومأ الحاخام: «إن كان الإله معنا في قاعة المحكمة غدًا ولم يظهر أي مستوطنين، فهذا قد يقنع القاضي بأنه بريء. غير أن أباك قاد مظاهرة احتجاج. وكونه قياديًا يجعله مستهدفًا. والأسوأ من ذلك هو أن لديكم أرضًا وماءً بجانب المستوطنة الجديدة. أنا آسف أنهم هدموا دوركم وقلعوا أشجاركم. لو كنا هنا، لربما استطعنا أن نمنعهم. أحيانًا ننجح في ذلك.»

نخزت الأم عمر ليترجم لها. وفيما كان يترجم، تطلعت أماني في المحامية. شعرها الرمادي جعلها تبدو أكبر من أمها، لكن بشرتها كانت نضرة وفتية. أُعجبت أماني بتلك الهالة من الحزم والذكاء التي تحيط بها. وتمنت لو أنها تستطيع أن تذهب إلى المحكمة غدًا لتسمع مرافعتها.

«أهلاً»، قالت الأم: «ستكونون ضيوفنا اليوم. أحد ناشطي السلام المسيحيين موجود أيضًا. نحن لم نأكل بعد وعندنا الخير كثير إن شاء الله. الحديث سيكون أسهل عليكم إن لم تكن البطون فارغة.»

هزوا رؤوسهم شاكرين. كانوا قد نصبوا عند العصر أسفل الدار المهدمة خيمة خيش تبرع لهم بها الصليب الأحمر الدولي. وعثرت أماني على فانوسي كاز فأشعلتهما، وشغلت المدفأة فيما كان عمر يساعد الرجل ذا القبعة الحمراء في إسدال جوانب الخيمة وإغلاقها. وتجمع الكل في حلقة ضيقة حول مائدة المساء.

جلست أماني بجانب عمر وبالكاد كانت تستطيع الأكل، وأخذت تختلس النظر إلى ضيوفها وهم يتشاركون طعامهم. بدا الجميع وكأنهم يعرفون بعضهم بعضًا جيدًا، فيما يغمسون من مواعين الطعام. وحين امتدحوا طبخ أمها وترجم لها عمر ما قالوه، احمر وجهها خجلاً مثل بنت صغيرة.

سأل عمر الكثير من الأسئلة. كان المسيحي أمريكيًا، أما الحاخام فهو من القدس. وتعيش المحامية في تل أبيب وتنشط في الدفاع عن حقوق الإنسان. كان أبوه قد قابلهم حين نظم العيادة المتنقلة والمظاهرة ضد الطريق السريع.

«إذًا أنتم تعملون معًا.»

نظر بعضهم إلى بعض وضحكوا.

«أحيانًا. نحن نحاول. الله سيرضى إن فعلنا ذلك.»

«هل حاولتم تحرير عمي؟»

«لقد فعلنا، وما نزال نحاول.»

«وهل تستطيعون مساعدتنا في بناء دارنا من جديد؟»

«لن يمكنكم فعل أي شيء دون الحصول على ترخيص. دون ترخيص سيعودون ويهدمون أي شيء تبنونه.»

«وكيف يمكننا الحصول على ترخيص؟»

«الترخيص مكلف. سنحاول أن نجمع تبرعات لكم.»

وصمت عمر حينما سمع ما قالوه.

نظفت أماني حنجرتها، ولاحظت المحامية ذلك.

«نعم يا أماني؟»

«ما الذي حل بمؤذن القرية؟ لم أسمع صوت الأذان منذ يومين.»

تبادل الضيوف الثلاثة نظرات مطولة. وأجاب الحاخام: «ربما يكون الجنود قد منعوه من رفع الأذان. يقولون إن صوته يقلق نومهم.»

وسارعت المحامية بالقول إن من الأفضل لهم أن يناموا، وأنها تريد أن تحتفظ بحدة ذهنها من أجل مرافعتها أمام المحكمة. ومدوا الفُرُش التي ما تزال تفوح برائحة غبار الإسمنت. لم تمانع أماني، بل كانت ممتنة لأنها ستقوم من على الأرض الباردة. وخلال الليل قام أحدهم مرتين ليحكم رباط أطراف الخيمة المسدلة. كان الشتاء يتسلل إليهم من تحت أطراف الخيمة. وتوغلت أماني أكثر تحت بطانياتها، وعند

قدميها الناجية الدافئة، بين الأصدقاء والعائلة.

بعد الفطور ودعهم الضيوف. وشعرت الأم بالانزعاج لأنها لم تكن تعرف الحديث بلغتهم؛ فقد كان لديها الكثير الذي تريد أن تقوله لهم. رافق عمر وأماني الضيوف إلى سيارتهم فيما بدأت موسيقى البيانو تصبح مسموعة. أطربهم ذلك، وتعجبوا حينما أخبروهم كيف نجا البيانو من هدم الدار فوقه.

«الآن، ها نحن أمام معجزة»، قال ناشط السَّلام المسيحي وهو يُصَفِّر.

[32]

«فكري بالأمر»، قالت الآنسة عبوشي.

أروع معلمة في العالم نزلت الجبل مشيًا لتزورهم. وحين همت بالمغادرة تبين أن السبب الحقيقي لزيارتها هو رزمة رقيقة ناولتها لأماني.

«هناك مدرسة في رام الله تدرس منهاجًا دوليًا جيدًا. أعرف بعض المعلمين هناك. ستكون مدرسة ممتازة لتعليمك الثانوي في السنة المقبلة.»

«لا أستطيع أن أترك الوادي يا آنسة عبوشي. أنا راعية.»

«أعرف أنك راعية. لكن اقرئي الكتيب. عِديني أنك ستفكرين في الأمر.»

أبو نادر أتى لزيارتهم أيضًا. وهو بدوره أتى يحمل عرضًا. أراد أن يعطي لأماني كبشه، المفاجأة، وآخر حمل بقي عنده، بحيث يمكنها أن تبدأ في تربية قطيع جديد. وقد اشترط شرطًا واحدًا فقط. في كل ربيع خلال السنوات الأربع المقبلة عليها أن تعطيه حَملاً.

وتذكرت أماني كم كان سيدو ماهرًا بالمساومات، مباشرة قالت له إن أربع سنوات كثيرة جدًا. فوافق على ثلاث.

«أعطني بعض الوقت لأفكر بالأمر»، قالت أماني.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

عند العصر أخذت أماني الناجية لترعى على السفح أعلى دارها. مشت طويلاً قبل أن تجد نفسها قادرة على الوقوف والتفكير. جلست في مكان يعطيها إطلالة جيدة على الوادي. ورأت آخر مجموعة من أهل القرية تصل لزيارتهم وتفقد حالهم في الخيمة وشرب الشاي معهم.

قرأت أماني الكتيب مرتين، ثم حاولت تخيل نفسها وهي ترحل عن الوادي.

قبعت الناجية عند قدميها، فربتت أماني على رأسها الأسود وهي تتمعن بإعجاب في أهدابها الطويلة.

«كان عندك أروع جدة في العالم. في الصيف المقبل يمكن أن يكون عندك توأم لتسعدي بحياتك إن شاء الله. لن تفتقديني. أي راعٍ بحاجة إلى الغنم، والغنم بحاجة إلى الراعي، إنها مسألة متشابكة. أبو نادر يمكن أن يعتني بك.»

وتحولت الشمس وراء القرية للبرتقالي والقرمزي.

أمامها على الجانب الآخر من الوادي شاهدت حطام دار عمها هاني ودار سيدو. آلمها النظر إليهما، وإلى السفح الأجرد تحتها. لم يتوقف الأقارب والجيران عن زيارتهم طوال اليوم، وكلهم وعدوهم بمساعدتهم في تعمير المدرجات الحجرية من أجل كرم الزيتون الجديد. وها هي جذور الشتلتين الجديدتين، الهدية من ناشطي السلام، قد أخذت فعلاً تتوغل في التربة تحتهما.

إنه واديها، وطنها.

صوت سيارة مقبلة على طريق المستوطنين السريع جعلها تلتفت غربًا. المصابيح الأمامية مضاءة. تمهلت السيارة، وتحول صوت احتكاك

إطاراتها إلى تهشيم للحصى على كتف الطريق، إلى أن وقفت عند فتحة الدرب المسدود قبل الخيمة.

وقفت أماني. وانطفأت مصابيح السيارة الفضية التي تحمل أثر صدمة. ثم انفتحت أبوابها وأغلقت.

ونظر رجل يقف مستندًا على عكازين، بمساعدة صديقيه، إلى الأعلى نحو أماني، ولوح بيده لها.

ورفعت أماني رأسها وزغردت، كانت زغرودة طويلة، أطلقت من حنجرتها أنشودة ترحيب بعودة حبيب إلى الدار.

* * *

آن لوريل كارتر: مؤلفة كتب للأطفال واليافعين. حازت عددًا من الجوائز. زارت إسرائيل عدة مرات منذ 1971 لتعمل في الكيبوتزات «المستوطنات» وتدرس العبرية، إضافة إلى التدريس في رام الله، حيث أقامت مع العديد من الأسر الفلسطينية أثناء إعدادها لكتابة هذه الرواية.

فازت روايتها "خليج الفرصة الأخيرة" الموجهة للكبار بجائزة أفضل كتاب من الرابطة الكندية للمكتبات العامة، كما فاز كتابها المصور "تحت سماء البرية" «رسوم ألان ولي دانييل» بجائزة مستر كريستيز للكتاب.

وتعمل آن معلمة وأمينة مكتبة في تورنتو.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

قراءة رائعة... لم أتمكن أن أضع الكتاب من يدي، وأثار مشاعري حتى البكاء عدة مرات. في هذه القصة المتميزة عن مرحلة بلوغ سن النضج تقدم لنا الكاتبة صورًا عن معاناة الفلسطينيين، وذلك الظلم والبطش الذي يمارسه الاحتلال، وروح المقاومة والإباء في نفوس الفلسطينيين... عمل جميل ومؤثر وعميق.

جيمس لوني، ناشط سلام وعضو في فرق صانعي السلام المسيحية في العراق وفلسطين، تعرض للأسر في العراق لأربعة شهور بين 2005 و2006.

جائزة أفضل كتاب للعام من الرابطة الكندية للمكتبات العامة

الكتاب الفخري من جائزة جيمس أدامز لكتب الأطفال

قائمة الكتب المميزة لمجتمع عالمي من الرابطة العالمية للقراءة

قائمة الكتب العالمية المميزة من المجلس الأمريكي لكتب اليافعين

مرشح لجائزة ريد مابل

«حافل بالمعلومات دون أن يكون تعليميًا... والجمع بين العربية والعبرية يضفي نكهة مميزة على النص... كتابة منسابة وأسلوب قصصي مباشر يجعل من الكتاب قراءة ممتعة... عميق الأفكار ويثير التفاعل في روح القارئ.»

مراجعات كيركوس، قراءة مميزة

«تصوغ كارتر توازنًا رائعًا في تطور الشخصية... كما تبني بيئة الرواية والمعلومات الثقافية بسلاسة بالغة ضمن السرد الروائي الذي تكتبه بأسلوب بسيط ووضوح ضمن تصوير بارع لواقع بالغ الحساسية.» – مجلة المكتبات المدرسية

ISBN 978-9948-85-776-1
9 789948 857761

KALIMAT
Publishing & Distribution للنشر والتوزيع